السماء والأرض في القرآن الكريم
دراسة في ضوء التفسير بالمصاحبة

أ.م.د. مجيب سعد ابوكطيفة
كلية العلوم الإسلامية / جامعة كربلاء

Heaven and Earth in the Noble Qur'an
A study in the light of the accompanying interpretation

Asst.Prof.Dr. Mujib Saad Abu Kataifa
Karbala University - College of Islamic Sciences
Email: Mugeeb.s@uokerbala.edu.iq

ملخص البحث

السماءُ والأرضُ من الألفاظِ التي تكررَ ذكرها بكثرةٍ في القرآنِ الكريمِ، وقد تصاحبت معها ألفاظ كثيرة ما أدى إلى تنوع الموارد التي ذُكرتْ فيها. ونحن في بحثنا هذا سنقتصر على موردين الأول : نبين فيه أيهما أسبق في الخلق والإيجاد السماء أم الأرض؛ إذ اختلف المفسرون فيهما فمنهم منْ ذهب إلى أنّ الأرض أسبق من السماء في الخلق، ومنهم من ذهب إلى أنّ السماء أسبق من الأرض ولكل من الطرفين أدلةٌ وحججٌ وآياتٌ يستند إليها في إثبات وجهة نظره.

والأمر الثاني : هو بيان المراد من الخلود والأبد؛ إذ ذهب أغلب المفسرين إلى أنّ المراد من الخلود هو الاستمرار اللامتناهي وكذا في لفظة الأبد. وقد بين البحثُ أنّ هناك دلالة أخرى لهذين اللفظين تختلف عما توافق عليه المفسرون وسطور هذا البحث تبين ما أراد الباحث إثباته.

الكلمات المفتاحية : التفسير بالمصاحبة، المصاحبة المعجمية، خلق السماء والأرض، الخلود، الأبد.

Abstract

Sky (Heaven) and earth are among the words that are frequently mentioned in the Holy Qur'an and many expressions were accompanied with them which led to the diversity of the resources mentioned in them. In our research we will confine ourselves to two sources the first in which we will show which of them comes first in creation the sky or the earth; As the interpreters differed in them some of them went to that the earth preceded the heavens in creation and some of them went to that the heavens preceded the earth and each of the two parties has evidence arguments and verses upon which to prove his point of view.

The second matter is the clarification of what is meant by eternity and everlasting. As most of the interpreters went to the meaning of eternity is the infinite continuity as well as in the word everlasting. The research showed that there is another indication for these two words that differs from what the interpreters agreed upon and the lines of this research show what the researcher wanted to prove.

المقدمة

الحمدُ لله الذي خَلَقَ الإنسانَ وعلَّمَهُ النطقَ واللسانَ، وأنزلَ القرآنَ، وتكفَّلَ البيانَ، والصلاةُ على سيدِ الإنسِ والجان، المبعوث رحمةً لجميع عوالم الإمكان محمدٍ خاتم شرائع الرحمن والصلاةُ على هداةِ الأنام، وأمراءِ الكلامِ الذين فيهم تنشَّبَتْ عروقُه، وإليهم تهدَّلَتْ غصونُهُ، سادات العربِ والعجمِ، آل محمدٍ الذين اجتباهم اللهُ في القِدَمِ، وجعلهم مواضعَ سرهِ، وحملةَ كتابِهِ، وأولياء النعمِ. وبعد:

لم تشهدْ لغةٌ ما شهدته العربية من تأريخ حافل بالدرس، والبحث، والتحليل، وما تزال توفر مساحاتٍ واسعة، وآفاقاً رحبة لمزيد من التحقيق والتدقيق في أنظمتها، ومستوياتها الصوتية، والصرفية، والمعجمية، والنحوية، والبلاغية، لما تتمتع به من خصائص ذاتية، وأخرى مكتسبة من نزول الكتاب السماوي الخاتم بلسانها، ويأتي القرآن الكريم على رأس النصوص العربية من جهة العناية بدراسته، وتحليله، والكشف عن أنظمته الدلالية في جميع المستويات؛ إذ هو تمظهر أو تجلّي كلام الله في لسان عربيّ مبين، تمثّل حمولة قوالبه اللفظية رسالة السماء الخاتمة في الرؤية الكونية، والتقنينات التشريعية، والمنظومة الأخلاقية للإنسان في بعده الفردي، والاجتماعي، وفي حياته الأولى، والآخرة.

وقد وضعت المناهج اللسانية الحديثة بيد المنقبين في التعبير القرآني وأسراره ودلالاته، أدوات ووسائل تزيد من قدرتهم على إتقان عملهم، وضبط إجراءاتهم التحليلية الدلاليّة، ومن هذه الوسائل معاييرُ النَّصِّ التي تُمثل طرائقَ يُنظر بها إلى النَّصِّ على أنَّه وحدةٌ مستقلةٌ في ذاتها، وتُحدِدُ ابتداءً ماذا يُشكِلُ نَصَّاً ما. وقد نتجت هذه المعايير عن سؤال، ما الذي يجعل تتابعاً جُمليَّاً نصَّاً ؟ وما الشروط التي يجب أنْ تُقدَّم في تكوين النَّصِّ؟ وبالإجابة على هذه الأسئلة يمكن أنْ يتحدث عن النص، ويمكن أنْ يُفصَل ذلك النَّصُّ عن تتابعات جُمليَّة عارضة يجب أنْ توصف بأنَّها ليست نُصوصاً[1].

فتصنيفُ هذه المعاييرِ جاء على وفقِ معاييرَ تخصُّ النّصَّ، ومعاييرَ تخصُّ المشاركين، وأخرى تخصُّ المحيطَ الثّقافي[2]. فبعضها لغويّ يتصل بالنص في ذاتهِ، وهما معيارا السبك،

(١) ينظر: لسانيات النَّصِّ مدخل إلى انسجام الخطاب، د. محمد خطابي: ٥٥ .
(٢) سورة البقرة في ضوء علم لغة النص، رسالة ماجستير، خالد سعد جبر،:٩.

والانسجام، وبعضها غيرُ لغويّ، يتّصلُ بمستعملي النّصِّ- سواء أكان المستعملُ منتجاً أم مُتلقِّياً- وهما معيارا القصديّةُ والمقبوليّة، وبعضها مشتركٌ بين اللّغويّ، وغيرِ اللّغويّ، كما في الموقفيّةِ والإعلاميّة والتّناصّ[1].

ونحن في بحثنا هذا سنقتصر على معيار واحد وهو معيار الاتساق محاولين أنْ نتخذ من المصاحبة المعجمية التي تمثل إحدى وسائل الاتساق وسيلة لتحليل بعض الآيات التي ورد فيها ذكر السماء والأرض، إذ للمصاحبة اللغوية أهمية كبيرة في تحديد دلالات الكلمات، والفروق اللغوية بينها. فجاء البحث بعنوان السماء والأرض في القرآن الكريم دراسة في ضوء التفسير بالمصاحبة متخذاً من منهج التفسير بالمصاحبة - الذي نظَّر إليه الدكتور لواء عبد الحسن وطبَّقه في بحوثه القرآنية [2] أساساً في استكناه دلالة السماء والأرض في موارد ذكرهما في القرآن الكريم.

وبعد أنْ تتبع البحث لفظتي السماء والأرض في القرآن الكريم وجد نفسه أمام مباحث ودلالات واستعمالات مترامية الأطراف، لا يمكن لبحث موجز مثل هذا أنْ ينهض بأعبائه، بل المسألة تحتاج إلى دراسات موسعة جدًا؛ لذا اختار أنْ يقف على طرفٍ من تلك المباحث، فما لا يدرك كلّه لا يترك جلّه.

وجاء البحث في فصلين، الفصل الأول : أشبه مهاد نظري، ومدخل تعريفي بمصطلحات البحث الأساسيّة تناول في المحور الأول دلالة السماء والأرض المعجمية والقرآنية، وتناول المحور الثاني مفاهيم الاتساق ووسائله، والمصاحبة. وتابع الفصل الثاني: السماء والأرض في القران الكريم عبر محاور ثلاثة الأول السماء والأرض ومصاحبتها اللغوية وما يلحظ على تلك المصاحبات، والثاني: خلق السماء والأرض وما يصاحبها من ألفاظ، والثالث: الخلود في الجنة بدوام السماء والأرض.

وما ينبغي الإلماح إليه أنّه قد جرت العادة بين الباحثين أنْ يتناولوا ترتيب الألفاظ على وفق الترتيب الهجائي أو الألف بائي الذي يقتضي تقديم الأرض على السماء غير أنَّ البحث

(١) ينظر: نحو النّصّ بين الأصالة والحداثة، أحمد محمد عبد الراضي:٨٢-٨٣، وفي البلاغة العربيّة والأسلوبيّات اللّسانيّة، د. سعيد مصلوح:٢٢٦.

(٢) ينظر : المصاحبة المعجمية المفهوم و الأنماط و الوظائف بين الموروث العربي و المنجز اللساني / د. لواء عبدالحسن عطية، ١٦٧-١٨٢.

آثر تقديم السماء على الأرض؛ لأنه وجد أنّ القرآن الكريم قد قَدَّمَ السماءَ على الأرضِ في جميع الموارد التي ذكر فيها السماء والأرض.

ويقرّ البحث ابتداءً بأنّه لم يكن سوى محاولة مقتضبة متواضعة ربما اعتراها ما يعتري الجهد البشري من النقص والخلل والسهو. نسأل الله أن يغفر لنا ذلك، وللقارئ أنْ يحملنا على محمل حسن مادام يجد إلى ذلك سبيلًا. والحمد لله أولًا وآخرًا.

المبحث الأول: مسارات معرفية

المحور الأول: دلالة السماء والأرض

أولاً: الدلالة المعجمية للفظة السماء

ذكر اللغويون لفظة سماء تحت الجذر اللغوي سمو، إذ قلبتْ الواو الفاً لتطرفها وانفتاح ما قبلها.

وقد أورد اللغويون للفظة سماء معانيَ عديدة منها قول الخليل: سما يسمو سُمُوّاً أي: ارتفع[1]، وقريب من هذا القول ما ذكره الصاحب بن عباد في قوله: سما إليه بصري أي: ارتفع بصرُكَ إليه، وإذا رُفِعَ لك شيءٌ من بعيدٍ فاستبنته قلت: سما لي شيءٌ[2]، فالسماء عند الخليل والصاحب بن عباد تدلُّ على الارتفاع والعلو.

وقد وظف الشعراء دلالة السمو على هذا المعنى في أشعارهم من ذلك قول جرير[3]:

سمت لي نظرة فرأيت برقـاً تهامياً فراجعنـي ادكاري

وقول شاعرٍ آخر:

سما لي فرسان كأنَّ وجوههم مصابيح تبدو في الظلام زواهر

ومن استعمال سما بمعنى الارتفاع قولهم: سما في الحسب والشرف، وسموت عليه ببصري[4]. ومن ذلك أيضاً قولهم: سموت وسميت، وفلان لا يسامى[5].

(١) العين، الخليل: مادة سمو.
(٢) المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد: مادة سمو
(٣) ديوان جرير: ٦٥.
(٤) الصحاح، الجوهري: مادة سمو.
(٥) أساس البلاغة، الزمخشري: مادة سمو.

ومن دلالة لفظة سمو على الارتفاع اشتق لفظ السماء ليدل على كل ما علاك فأظلك، ومنه قيل لسقف البيت: سماء[١]. ومن موارد استعمال العرب للفظة سمو وما يشتق منها قولهم: سما الفحلُ: سطا على شَوله سَماوَةً. وسَماوَةُ الهلال وكلِّ شيءٍ: شخصُهُ، والجمع سَماوٌ. والعرب تُسمِّي السّحاب سماءً، والمطرَ سماءً، فإذا أريدَ به المطرُ جُمع على سُمِيّ. والسَّماءة: الشَّخص. والسماء: سقف البيت. وكلُّ عالٍ مطلٍّ سماء، حتَّى يقال لظهر الفرس سَماء. ويتَّسِعون حتَّى يسمُّوا النَّبات سماء[٢] ومن سمو اشتق لفظ اسم ليكون علامة للشيء يعرف به[٣]، وأصل تأسيسه: سمو، وسميت وأسميت، ويقال: سِمٌ، سَمٌ، واسمٌ[٤].

والسِّيماء والسِّيمياء واحد، وهي علامة يعلم بها الرجل في الحرب[٥] ومنه قوله تعالى: ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[٦].

إنَّ إنعام النظر في ما ذكره اللغويون من دلالات للفظة سمو وما يشتق منها يقود إلى إنّ جميع دلالات لفظة سمو ترجع إلى معنى عام تنضوي تحته جميع هذه الدلالات وهو العلو والارتفاع.

وهذا المعنى يتساوق إلى حدٍ ما مع ما ذكره ابن فارس في دلالة لفظة سمو في قوله: السين والميم والواو أصلٌ يدل على العُلُوِّ. يقال سَمَوْت، إذا علوت. وسَمَا بصرُه: عَلا. وسَمَا لي شخصٌ: ارتفع حتّى استبنتُّه[٧].

وهذا الرأيُ يُوضحُ مخطط التوسع الدلالي، الذي يُبَيّنُ مِحْورَ التحول الدلالي للفظة سما من المادي إلى المعنوي.

(١) الصحاح مادة سمو.
(٢) تاج العروس، الزبيدي: مادة سمو.
(٣) القاموس المحيط، الفيروز آبادي: مادة سمو.
(٤) لسان العرب، ابن منظور: مادة سمو.
(٥) جمهرة اللغة، ابن دريد: سمو.
(٦) آل عمران من الآية ١٢٥.
(٧) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس: مادة سمو.

الاستعمال القرآني للفظة سماء

لفظة سماء تكرر ذكرها بكثرة في القرآن الكريم إذ ذكرت لفظة السماء معرفة بـ ال مائة وعشرين مرةً، ووردت بلا ال في مورد واحد متمثلة بقوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[١]، ووردت مجموعة جمع مؤنث سالم سموات مائة وتسعين مرةً، منها ما كانت معرفة بـ ال كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[٢]، ووردت بلا ال في خمس آيات من قبيل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾[٣].

وإنَّ إنعام النظرِ في موارد استعمال السماء معرفة بـ ال وغير معرفة بـ ال وكذا استعمالها في حالة الجمع والإفراد لا يقتصر على الجانب النحوي بدخول أداة التعريف؛ بل هو أكثر اتساعاً من التغيير المجرد بين التنكير والتعريف؛ وذلك أنَّ التأمل في مفهوم التعريف والتنكير في الفكر النحو العربي يري أنَّ تأسيسهما قائم في إطار تصنيفي بحت، وكأنّه لم يعط الدلالة التي يحدثها التعريف أكثر من مجرد تحول الاسم من التنكير إلى التعريف، وميزات شكلية في الجملة، تجعل التغيير الدلالي الذي تحدثه أداة التعريف ضيقاً[٤] بل الأمر أبعد من ذلك بكثير ولا سيما فيما يخص اللفظة موضع البحث.

ثانياً: الدلالة المعجمية للفظة الأرض

الأرض: الأرض معروفة الدلالة ومنها قالوا: تأرض الرجل: نزل مشتق من الأرض وهم يتأرضون منزلاً أي يتخيرون أرضاً[٥]، وعند ابن فارس أنَّ الأرض تدلُّ على كل شيء يسفل يقابل السماء، والارض التي نحن عليها، وتجمع على أرضين[٦].

الاستعمال القرآني للفظة الأرض

وردت لفظة الأرض محلاة بـ ال في حالة الرفع أربعاً وثلاثين مرة منها قوله تعالى:

(١) سورة فصلت الآية ١٢.
(٢) سورة البقرة: من الآية ١٠٧.
(٣) سورة نوح الآية ١٥.
(٤) الساعة في القرآن الكريم دراسة دلالية في ضوء منهج المدونة المغلقة، د. حسن الأسدي: ٢١.
(٥) العين، مادة أرض
(٦) ينظر: معجم مقاييس اللغة، مادة أرض، وتهذيب اللغة، الأزهري، مادة أرض.

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾(١)، ووردت في حالة النصب ستاً وثمانين مرة منها قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾(٢)، ووردت في حالة الكسر ثلاث مائة وإحدى وثلاثين مرةً منها قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾(٣)، ووردت مضافة إل كاف الخطاب ثلاث مرات منها قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾(٤)، ووردت مضافة إلى ضمير الجمع نا ثلاث مرات كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَامُوسَى﴾(٥)، ووردت مضافة إلى الضمير الهاء مرة واحدة هي قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾(٦)، ووردت مضافاً إلى ياء المتكلم مرة واحدة هي قوله تعالى: ﴿يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾(٧)، ووردت مجردة من ال مضافة إلى لفظ الجلالة الله اربع مرات منها قوله تعالى: ﴿وَيَاقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾(٨) ووردت مجردة من ال والجردة من ال والإضافة في حالة نكرة مرة واحدة هي قوله تعالى: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾(٩).

المحور الثاني: قراءة في مفهوم الاتساق ووسائله

أولاً: الاتساق

يحكمُ ترابط الجملِ معَ بعضها أدوات شكلية أو دلالية، وإنَّ خلو النص من هذه الأدوات يُصيِّره جملاً متراصة لا يربط بينها رابط ويصبح النص – إذا عددناه نصاً–جسداً

(١) سورة أل عمران الآية ١٣٣.
(٢) سورة البقرة: ٢٥٥.
(٣) سورة البقرة: ١١٧.
(٤) سورة الشعراء: ٣٥.
(٥) سورة طه:٥٧.
(٦) سورة الاحزاب:٢٧.
(٧) سورة العنكبوت:٥٦.
(٨) سورة هود: ٦٤.
(٩) سورة يوسف:٩.

بلا روح[١]. من هنا ظهرت الحاجة إلى عنصر جوهري يدخل في تشكيل النَّصِّ وتفسيره، فيعمل على جعل الكلام مفيداً، ويعمل على استقرار النَّصِّ وثباته، بعدم تشتت الدَّلالة الواردة في النَّصِّ، وتنظيم بنية المعلومات داخل النَّصِّ مما يساعد القارئ على فهمه بمتابعةِ خيوط التَّرابط المتحركة عبر النَّصِّ التي تمكنه من ملء الفجوات، أو معلومات ما بين السُّطور التي لا تظهر فيه ولكنَّها ضرورية[٢]. وقد أطلق الغربيون على هذا المعيار مصطلح "cohesion" الذي يُعدُّ المعيار الأوَّل من المعايير النَّصيَّة التي وضعها بوجراند ودريسلر، وعَدَّاه سمة تعكس تبعية الأبنية السطحية في النص بعضها إلى بعض وتعتمد على الأبنية القواعدية[٣]. ولقى هذا المصطلح عناية اللسانيين الكبيرة، بتوضيح مفهومه، وأدواته، وإبراز عوامله وشروطه، ولم يتفق الباحثون العرب حول المصطلح العربي المقابل له، فاستعملوا مصطلحات متعددة بتعدد الدراسات النصية العربية[٤].

آثر البحث استعمالَ مصطلحِ الاتساق من دونِ غيرِه من المصطلحات، نحو السّبك، والتّضامّ، والتّناسق، والتّرابط الرّصفيّ، على الرّغمِ من أنّ هذه المفرداتِ جميعَها تحملُ معنى التّرابطِ الشّكليّ[٥]؛ لأنّ السّبكَ مصطلحٌ تراثيٌّ، حتى لا تختلطَ المفهوماتُ القديمةُ بالحديثة، وأمّا مصطلحا التّضامّ والتّناسقِ فليسا متداولين في أوساطِ اللّسانيّين النّصّيّين، والتّرابطُ الرّصفيّ مصطلحٌ مركّبٌ يستحسنُ الابتعادُ

(١) علم اللغة النصي:١/ ٩٣.
(٢) ينظر: علم اللغة النَّصي بين النظريَّة والتطبيق:١/ ٧٤ و نظرية علم النَّصِّ: ٨٠ .
(٣) مدخل إلى علم اللغة النصي، فولفجانج وديتر:٩٣.
(٤) استعملوا الباحثون العرب مصطلحات عدة مقابل للمصطلح الغربي "cohesion"، منها:
الاتساق، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، د. محمد خطابي: ١١. الانسجام، ولسانيات النَّصِّ نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري، د. أحمد مداس: ٨٣ . الترابط، أصول تحليل الخطاب، د.محمد الشاوش: ١/ ٢٥ .التناسق، من لسانيات الجملة إلى علم النَّصِّ، بشير برير:٢٣ .التضام، مدخل الى علم لغة النص:١١.التماسك، علم اللغة النَّصي بين النظريَّة والتطبيق:١ / ٩٣ . الربط اللفظي، علم لغة النَّصِّ بين النظرية والتطبيق، عزة شبل: ٩٩.الربط النحوي، علم لغة النَّصِّ المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد حسن بحيري: ١٤٥ .السبك، نحو النَّصِّ اتجاه جديد في الدرس النحوي، د. أحمد عفيفي: ٧٥.
(٥) ينظر: لسان العرب،ابن منظور: "رصف" و"سبك" و"ضم"، و"وسق"، ولسانيّات النّصّ، لبندة قيّاس: ٢٧.

عنه [١]، فيكونُ الاتساق هو المصطلحَ الأنسبَ، اعتماداً على ترجمةِ محمّد خطابي؛ إذ تبدو هذه التّرجمةُ أقربَ إلى المفهومِ المراد، وأكثرَ شيوعاً في الدّرسِ اللّسانيّ الحديث[٢].

ثانياً: مفهوم الاتساق:

لم يخل مفهومُ الاتساق من الاضطرابِ في تعريفِه؛ فهناك اتجاهانِ مختلفانِ في تحديدِه:

الاتّجاه الأوّل: يرى أنّ الاتساق هو ذلك التّماسكُ الشّديدُ بينَ الأجزاءِ المؤلِّفة لنصٍّ لغويٍّ ما، ويهتمُ بالوسائلِ اللّغويّةِ "الشّكليّة" المُوصِلةِ بين العناصرِ المكوِّنةِ لجزءٍ من النص أو النص برمّتِه[٣].

فالاتساق يتعلّقُ بأجزاءِ النّصِّ اللّغويّ الظّاهرةِ على سطحِه، نحو أدواتِ العطفِ، والتّكرارِ، والإحالةِ، وغيرِها من الوسائلِ الّتي تحقّقُ التّرابطَ بين أجزائه.

الاتّجاه الثاني: يرى أنَّ مفهومَ الاتساق مفهومٌ دلاليٌّ، فهو يحيلُ إلى العَلاقاتِ المعنويّةِ الموجودةِ داخلَ النّصِّ الّتي تحدّدُه نصّاً[٤]. فالاتساق على هذا خاصيَّة دلاليَّة للخطاب؛ تعتمد على فهم كلِّ جملة مكونة للنَّصِّ في علاقتها بما يفهم من الجمل الأخرى[٥].

يبدو أنّ ما دفع الباحثين إلى الاتجاه الثّاني هو أنّ أدواتِ الرّبطِ تؤدّي مهمة وظيفيّةً؛ لا لأنّها وحداتٌ نحويةٌ تربطُ بينَ الجملِ بعضِها ببعضٍ؛ بل لكونِها وحداتٍ وظيفيةً تؤدّي أثراً في جعلِ النّصِّ وحدةً دلاليّة[٦].

(١) سورة البقرة دراسة في ضوء علم لغة النص:١٣.

(٢) ينظر: لسانيّات النّصّ، ليندة قيّاس: ٢٧. وممّن استعمل مصطلح الاتساق د. نعمان بوقرة في كتابه مدخل الى التّحليل اللّسانيّ للخطاب الشّعري: ٣٦. وعثمان أبو زنيد في كتابه نحو النّصّ إطار نظريّ ودراسات تطبيقيّة: ٢٨. وليندة قيّاس في كتابها لسانيّات النّصّ:٢٧. ومحمّد خطابي في كتابه لسانيّات النّصّ:٣١، ومحمّد الشّاوش في كتابه أصول تحليل الخطاب:١٢٣،ومحمّد الأخضر في كتابه مدخل إلى علم النّصّ:٨٦.

(٣) ينظر: لسانيّات النّصّ، محمّد خطابي: ٥.

(٤) ينظر: لسانيّات النّصّ: ١٥، و مدخل إلى علم النّصّ، محمّد الصّبيحي: ٨٢.

(٥) بلاغة الخطاب وعلم النص: ٤٤ .

(٦) ينظر: نظريّة علم النّصّ، حسام أحمد: ٨٢.

ثالثاً: وسائل الاتساق

الاتساق خاصيَّة دلاليَّة للنَّصِّ، يعتمد على فهم كُلِّ جملة مكوِّنة للنَّصِّ في علاقتها بما يفهم من الجمل الأخرى، وتقوم أدواته بوظيفة إبراز ترابط العلاقات السببية بين العناصر المكوِّنة للنَّصِّ في مستواه الخطي المباشر[١]، ويمثل الاتساق انطلاقاً من الشَّكل إلى الدَّلالة؛ فالرَّوابط التي تربط ظاهر النَّصِّ تحتوي على قدرٍ من الدَّلالة تم الرَّبط على وفقه، فيتحقق الرَّبط بوساطة علاقات دلاليَّة أساسيَّة؛ إذ يعتمد تفسير أحد العناصر في النَّصِّ على العنصر الآخر؛ لذا قد يقع الرَّبط داخل الجملة أو بين الجمل[٢]. هذا الترابط المنظَّم بين الجمل يعرف بالاتساق؛ وهو الذي يضمن تماسك النص وتمييزه عن اللا نص.

وقد أسهمت في عملية الاتساق مجموعة من الوسائل والأدوات النحوية، والدلالية، وهذا جعل الاتساق يكون تركيبياً ودلالياً. إذ رصد الألسنيون الوسائل التي تسهم في تحقيق الاتساق وعَدُّوا من أبرزها الرّبطُ المعجميُّ، والرّبطُ النّحويُّ[٣]. والربط المعجمي ينضوي تحته مجموعة من الوسائل ونحن في بحثنا هذا سنقتصر على وسيلة واحدة من وسائل الربط المعجمي – رعاية للاختصار – وهي المصاحبة المعجمية:

رابعاً: المصاحبة المعجميّة

يُعَدُّ البحث في المصاحبات المعجمية "collocation" واحداً من البحوث اللسانية الحديثة التي تناولتها الدراسات المعجمية؛ إذ ظهر مصطلح "collocation" لأول مرة سنة ١٩٥١م في بحوث اللساني الانجليزي جون روبرت فيرث[٤]، ومنذ ذلك الحين أَثار هذا البحث إشكاليات متنوعة ولاسيّما تحديد الجهاز المصطلحي المتعلّق بهذه الدراسة[٥]؛ وذلك أنّه على الرغم من ورود إشارات في تراثنا اللساني تؤكد وعي علمائنا الأقدمين بهذا المفهوم إذ إنّ رصيد هذه الظاهرة في التراث العربي القديم زاخرٌ ومتعدّد، فضلاً عمّا عرفته

(١) ينظر: علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات : ١٢٣، علم النص، عبد المجيد جميل:١٤٥.
(٢) ينظر: علم لغة النص بين النظرية والتطبيق : ٩٩ .
(٣) ينظر: علم لغة النّصّ، عزّة شبل:١٠٥.
(٤) ينظر منزلة المتلازمات في المعجم الوسيط "بحث" د. علي الودرني: ١٩١.
(٥) المصاحبة المعجمية، ٤٢.

العربية من عبارات وتراكيب جديدة[١] إنَ الأقدمين لم يؤطروا وعيهم ذلك بنظرية أو مقولة تكون مستنداً لتأسيسهم، فضلاً عن اجتراح مصطلح خاص لهذا الحقل المعجمي الذي اتجه – حديثا – إلى دراسة التجمعات اللفظية الدالة على المركبات والتعبيرات وسواهما... ويطلق على هذه التجمعات اللفظية "المصاحبات المعجمية" "collocation"[٢] .

وبعد أنْ أصبح مصطلح "collocation" قاراً في اللسانيات المعجمية، وصار يُعَبِّرُ عن ظاهرة لغوية عالمية لفتت انتباه دارسي اللغات[٣]، فهي كما يؤكد أحد المحدثين ليست حكراً على لغة من دون أخرى. فالقوانين التي تَحْكُمها واحدة، والضوابط التي تَحدُّها لا تختلف بين اللغات؛ ولذلك عدَّها اللسانيون من العالميّات اللغوية[٤].

وقد استقبله العرب، ووضعوا له مقابلات عدَّة من أجل تحديد مفهومه، وضبط خواصه بَيْد أنَّ هذه المقابلات بلغت حداً جاوز العشرين مقابلاً جمعها الدكتور لواء عبد الحسن في مبحث خاص، ووضع لها جدولاً، وخلص إلى أنَّ اللسانيين العرب أكثروا من البدائل الاصطلاحية الدالة عليه ورأى أنّ هذا ينعكس سلباً على المصطلح فيجعله يقترب حيناً من مفهومه المركزي وينأى عنه حينا آخر[٥]؛ لذا استبعد بعض الترجمات التي رأى فيها قصور المصطلح العربي عن الوفاء بدلالة هذه الظاهرة اللغوية أو لكونه لا يعدُّ مقابلاً مفضلاً لمدلوله اللغوي وقيمته الدلالية التي تخص جزئية المفهوم المحال إليه الذي لا يستجيب لعمومية "collocation".

وقد ظهر للباحث أنَّ مصطلح "المصاحبة" يعدُّ من أكثر المقابلات اطراداً واستعمالاً عند اللسانيين فضلاً عن كونه أكثر دلالة على مضمون ذلك المصطلح[٦].

وأمّا قيد "المعجمية" فنسبة إلى مصطلح "المعجم" الدالّ- عند أكثر اللسانيين- على الرصيد اللغوي المشترك بين أبناء اللغة الواحدة، أو الكتاب المدوَّن الذي تُرتّب فيه بطريقة

(١) المصاحبة المعجمية، ٤٢.
(٢) المرجع نفسه .
(٣) التعابير الاصطلاحية والسياقية ومعجم عربي لها "بحث" د. علي القاسمي: ١٩.
(٤) ينظر: معجم المصطلحات اللغوية، رمزي بعلبكي: ٢٧٥، ٢٧٦، و علاقة التلازمات اللفظية بالمجاز من خلال أساس البلاغة للزمخشري "بحث" د. زكية السائح: ٦٦.
(٥) المصاحبة المعجمية: ٤٣.
(٦) ينظر: المرجع نفسه: ٥٣.

ما، وتُشرَح مفردات تلك اللغة[1].

المبحث الثاني: السماء والأرض ومصاحباتها المعجمية

المحور الأول: ما يلاحظ من تلك المصاحبات

بعد النظر في بعض الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر السماء والأرض، ومتابعة سياقاتها، رصد البحث مصاحبات هذين اللفظين في القرآن الكريم في ضوء (نظرية المصاحبة في اللسانيات النصية) وخلص إلى ملاحظات عدة من أهمها ما يأتي:

١ – إنّ هناك حثاً دائماً على النظر والتفكر في خلق السماوات والأرض باستعمال الفعل المضارع ينظر وما يشتق منه كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ﴾[2] وكذا قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾[3]، والفعل ينظر بوصفه لفظاً محورياً[4] تصاحب مع العاقبة في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾[5]، وفي النص القرآني أكثر من مورد تصاحب فيه الفعل ينظروا مع العاقبة[6]، وتصاحب الفعل ينظرون مع الفعل يأتي في قوله تعالى ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾[7]، وتصاحب أيضاً مع سنة الأولين كما في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾[8]. ومثل ذلك يجري في تصاحب فعل الأمر انظروا مع السماء والأرض كما قوله تعالى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[9]، والمصاحبة التي يمكن رصدها من هذه الآيات

(١) المرجع نفسه:٣٨.
(٢) سورة الاعراف ١٨٥.
(٣) سورة ق: ٦.
(٤) اللفظ المحوري (Node Nodal Item): هو اللفظ موضوع الدراسة أوالبحث. فكلمة "بقرة" مثلاً تصاحب كلمات مثل: "يحلب" و "حلوب"و "لبن" وتميزها مِن كلمات أخرى مثل: "ثور" أو "لبؤة" أو "قطة" وهكذا.فاللفظ المحوري في هذا المثال كلمة (بقرة). ينظر: الاتجاهات الحديثة في علم الأساليب وتحليل الخطاب، د. علي عزة: ٣٢، و المصاحبة المعجمية: ١١٦.
(٥) سورة يوسف: ١٠٩.
(٦) ينظر الآيات : فاطر:٤٤، غافر: ٨٢، ومحمد:١٠.
(٧) سورة البقرة:٢١٠.
(٨) سورة فاطر:٤٣.
(٩) سورة يونس:١١٠.

هي النظر في السماوات والارض؛ لذا يمكن أنْ تُعدَّ هذه المصاحبة من نمط "المصاحبات الحرة"[١]؛ لكونها تقبل جدولياً التبادل الحر.

٢ – إنَّ هناك سؤالاً يتكرر عن الذي خلق السماوات والأرض كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾[٢]، وسياق التساؤل عن الذي خلق السماوات والأرض تكرر في سور أخرى[٣]، والمسؤولون هم الملحدون الذين يدَّعون عدم وجود خالق أو آله أو مُوجِد للكون. والفعل الماضي سألتهم تصاحب مع الفعل نزل كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾[٤]، وتصاحب أيضاً مع الفعل خلق كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾[٥]، والملاحظ أنّ الإجابة على هذا السؤال في هذه جميع الموارد هي واحدة تكمن في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ ..... لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾؛ لذا يمكن أنْ تعد هذه المصاحبة بلحاظ قوة الاستدعاء[٦] من نمط "المصاحبات المقبولة"[٧]؛

(١) المصاحبات الحرة: هي التجمعات التي تتمتع بحرية الترابط والاستبدال مثل ارتباط الفعل "أكل" في اللغة العربية بمجموعة كبيرة من الأسماء التي يمكن استبدالها بسهولة فائقة: "أكل الخبز" "أكل التفاحة". المتلازمات اللفظية في المعاجم الأحادية والثنائية اللغة (بحث)، أمينة أدردور: ١٣٠.

(٢) سورة العنكبوت: ٦١

(٣) ينظر: سورة لقمان: ٢٥، وسورة الزمر: ٣٨، وسورة الزخرف: ٩.

(٤) سورة العنكبوت: ٦٣

(٥) سورة الزخرف:٨٧

(٦) تصل درجة الترابط بين اللفظين المتصاحبين إلى مستوى وطيد؛ بحيث إذا ذُكِر أحدهما استدعى صاحبه– على الفور– فتكون درجة التوقع بينهما عالية، وهذا التصاحب– بلحاظ قوة الاستدعاء– يمثّل نمطاً للمصاحبات وبذلك يمكن تقسيم "المصاحبات المعجمية" – مِن ناحية قوة الإستدعاء– على ثلاثة أنماط: ١– المصاحبات الوطيدة، و٢– المصاحبات المقبولة، و٣– المصاحبات المستبعدة. ينظر: تعريف المتلازمات اللفظية في القاموس العربي الحديث (بحث) د. منية لحمامي: ٢٢٤، والمصاحبة المعجمية: ١٢٦– ١٢٨.

(٧) المصاحبة المقبولة: تكون المفردات في هذا النمط مفتوحة المصاحبات، فليس هناك قيود واضحة على المفردات التي تتصاحب معها، إذ يمكن أن يُستبدَل أي مكوّن من مكوناتها في حدود الاشتراك– في الأقل– في سمة دلالية واحدة، وتبدأ درجة التوقع تقل في هذه المصاحبات حتى تصل إلى مفردات يشتبه معها الصحة والخطأ. نحو: كلمة "صندوق" وكلمة "البريد".فالكلمة الأولى مثلاً ممكن أن تستعمل مع مفردات أخرى مثل: (القمامة الشكاوى الزكاة الميت ...الخ) فيقال: صندوق القمامة صندوق الشكاوى وصندوق الزكاة...إلخ ولكن استعمال كلمة "صندوق" مع هذه الكلمات من الاستعمال القليل النادر بخلاف استعمالها مع كلمة "البريد". ينظر: المصاحبة المعجمية:١٢٧.

لقلة البدائل المحتملة.

٣ – تحدث القرآنُ الكريمُ عن خلقِ السموات والأرض كما في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾(١)، ولم يقتصر الذكر القرآني على هذه الآية فحسب بل وردت آيات أخرى بالمضمون نفسه(٢)، وقد استعمل القرآن الكريم اشتقاقات الفعل الخلق كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾(٣)، واستعمل الفعل يخلق كما في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾(٤)، والفعل خلق بوصفه لفظاً محورياً تصاحب مع لفظ الجلالة ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾(٥)، ومع الانسان ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾(٦)، ومع الجار والمجرور ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾(٧)، ومع الليل والنهار ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾(٨)، ومع الدابة ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ﴾(٩)؛ لذا يمكن أنْ تُعدَّ هذه المصاحبة من نمط "المصاحبات الحرة"؛ لكونها تقبل جدولياً التبادل الحر.

٤ – تحدث القرآن الكريم عن عملية انزال الماء من السماء في قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾(١٠)، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾(١١)،

(١) سورة الأنعام:١.
(٢) ينظر: سورة البقرة:٢٩، ١٦٤، آل عمران: ٩٠ ، ٩١، الأنعام: ٧٤، الأعراف: ٥٤، ١٨٥، التوبة: ٣٦، يونس :٣، هود:٧، ابراهيم :١٩، ٣٢/ النحل: ٣، الاسراء: ٩٩، الكهف: ٥١، طه:٤، الفرقان: ٥٩، النمل:٦٠، العنكبوت: ٤٤ ، ٦١، لقمان: ١٠ ، ٢٥، السجدة:٤، يس: ٨١، الزمر: ٣٨، غافر: ٥٧، فصلت: ٩، الشورى٧٩، الزخرف: ٩، الاحقاف: ٣٣، الحديد: ٤، التغابن:٣، الطلاق:١٢، الملك: ٣، نوح:١٥.
(٣) سورة آل عمران:٩٠.
(٤) سورة الشورى:٤٩.
(٥) سورة يونس:٥.
(٦) سورة النحل:٤.
(٧) سورة البقرة:٢٩.
(٨) سورة الانبياء: ٣٣.
(٩) سورة النور:٤٥.
(١٠) سورة الرعد:١٤
(١١) سورة النحل:١٠

والفعل انزل بوصفه لفظاً محورياً تصاحب مع لفظ الجلالة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾(١)، ومع الجار والمجرور ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾(٢)، و﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ﴾، ومع لفظ الكتاب ﴿إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ﴾(٣)، ومع الضمير: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ﴾(٤)، ومع لفظ رب ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾(٥)، ومع لفظ السكينة ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾(٦)؛ لذا يمكن أنْ تُعدَّ هذه المصاحبة من نمط "المصاحبات الحرة"؛ لكونها تقبل جدولياً التبادل الحر، وحرياً بالباحثين أنْ يفردوا بحوثاً مستقلة لاستكناه دلالة اللفظ انزل الذي يحمل بين طياته أسراراً لا يمكن كشفها إلاّ بعد تفكر عميق وتأمل طويل في الآيات التي ورد ذكره فيها.

٥ – وصف القرآن الكريمُ عظمة ملكوت الله ، واتساع ملكه ببيان أنّ السماوات السبع وما فيها من نجوم وكواكب وأفلاك ومجرات وأقمار، والأرض وما فوقها وما تحتها كل ذلك تحت سلطانه، وذلك باستعمال حرف الجر اللام الذي يفيد التمليك الذي تصاحب مع لفظ الجلالة الله مكونا شبه الجملة – الخبر – لله كما في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾(٧)، ومثله قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾(٨). وشبه الجملة لله بوصفه لفظاً محورياً قد تصاحب مع الحمد كما في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٩)، وتصاحب مع الدين كما في قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾(١٠)، ومع الشكر ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾(١١)، وتصاحب مع المشرق والمغرب

(١) سورة البقرة:٩١.
(٢) سورة البقرة:٤.
(٣) سورة الأنعام: ١٥٦.
(٤) سورة المائدة:٤٤.
(٥) سورة النحل:٣٠.
(٦) سورة الفتح:٤.
(٧) سورة البقرة: ٢٠٤.
(٨) سورة المائدة :١٢٠.
(٩) سورة الفاتحة:١.
(١٠) سورة البقرة:١٩٣.
(١١) سورة البقرة: ١٧٢.

﴿قُلْ للهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾(١)، وتصاحب مع لفظة وجه ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ﴾(٢)، وتصاحب مع القوة ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ للهِ﴾(٣)، وتصاحب مع الحج والعمرة ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ للهِ﴾(٤)، وتصاحب مع القنوت ﴿وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ﴾(٥)، وتصاحب مع لفظة وجه ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للهِ﴾(٦)، وتصاحب مع الأمر ﴿إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ للهِ﴾(٧)، ومع الخشوع ﴿خَاشِعِينَ للهِ﴾(٨)، ووتصاحب مع العزة ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ للهِ﴾(٩)، ومع الشهداء ﴿شُهَدَاءَ للهِ﴾(١٠)، ومع الغيب ﴿إِنَّمَا الْغَيْبُ للهِ﴾(١١)، و مع السجود: ﴿سُجَّدًا للهِ﴾(١٢)، ومع الولاية ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ للهِ الْحَقِّ﴾(١٣)، ومع لفظ حنفاء ﴿حُنَفَاءَ للهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ﴾(١٤)، ومع الملك ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ للهِ﴾(١٥)، ومع الحق ﴿أَنَّ الْحَقَّ للهِ﴾(١٦)، ومع المساجد كما في قوله تعالى: ،: ﴿أَنَّ الْمَسَاجِدَ للهِ﴾(١٧).

ولم يقتصر تصاحب شبه الجملة لله مع الاسماء فحسب ، بل تصاحب مع الفعل الماضي كما في قوله تعالى: و﴿وَبَرَزُوا للهِ جَمِيعًا﴾(١٨)، وتصاحب مع الفعل سبح و: ﴿سَبَّحَ

(١) سورة البقرة:١٤٢.
(٢) سورة البقرة:١١٢.
(٣) سورة البقرة: ١٦٥.
(٤) سورة البقرة:١٩٦.
(٥) سورة البقرة:٢٣٢.
(٦) سورة آل عمران: ٢٠.
(٧) سورة آل عمران ١٥٤.
(٨) سورة آل عمران: ١٩٩.
(٩) سورة النساء: ١٣٩.
(١٠) سورة النساء: ١٣٥.
(١١) سورة يونس:٢٠.
(١٢) سورة النحل: ٤٨.
(١٣) سورة الكهف:٤٤.
(١٤) سورة الحج: ٣١.
(١٥) سورة الحج:٥٦.
(١٦) سورة القصص:٧٥.
(١٧) سورة الجن:١٨.
(١٨) سورة ابراهيم:٢١.

لله﴾[1]، وتصاحب مع الفعل المضارع أيضا كتصاحبه مع الفعل المضارع يسبح الوارد في قوله تعالى ﴿ يُسَبِّحُ للهَّ﴾[2]، و تصاحب مع الفعل المضارع تقوموا ﴿أَنْ تَقُومُوا للهَّ﴾[3]، ومثلما تصاحب شبه الجملة لله مع الأسماء ومع الأفعال فقد تصاحب مع الضمير من ذلك تصاحبه مع الضمير نا الداخل على إنَّ في قوله تعالى:﴿إِنَّا للهَّ﴾[4] وبذلك تجد أنّ كل ما يوصف بأنّه مخلوق بِدْأً بأعظم شيء وهو السماء وما فيها من مجرات وكواكب إلى أصغر شيء، كل ذلك ملك لله سبحانه وتعالى، ومن ثمَّ فإنّ الحكم والملك ، والأمر، والقوة ، والعزة والسجود ، والقيام وما شئت فعبر كلَّه لله، وكلَّه خاضع لسلطانه؛ لذا يمكن أنْ تُعدَّ هذه المصاحبة من نمط "المصاحبات الحرة"؛ لكونها تقبل جدولياً التبادل الحر.

٦ – وصف القرآن الكريم عملية الانتقال من الأرض الى السماء باستعمال اللفظ سبب كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ﴾[5]، وكذا قوله تعالى: ﴿ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴾[6]، ومثله قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾[7] .

ومما ينبغي الإلماح إليه أنّ اللفظ سبب تصاحب مع لفظة السماء فقط في جميع موارد ذكره في القرآن الكريم، وهو يبين عملية الصعود إلى السماء كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ۝٣٦ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ﴾[8]، وكذا قوله تعالى: ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾[9]، ومثله قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾[10]. وقد وظف القرآن الكريم لفظة سبب في وصف رحلة ذي القرنين الواردة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ

(١) سورة الحديد:١.
(٢) سورة النجم:٦٢.
(٣) سورة سبأ:٤٦.
(٤) سورة البقرة:١٥٦.
(٥) سورة الحج:١٥.
(٦) سورة ص: ١٠.
(٧) سورة البقرة: ١٦٦.
(٨) سورة غافر:٤٠.
(٩) سورة ص: ١٠.
(١٠) سورة البقرة: ١٦٦.

شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾[1]، وإنّ تصاحبَ لفظةِ سبب مع لفظةِ السماء في القرآن الكريم وهو يصف الصعود إلى الفضاء دفع أحد الباحثين المحدثين إلى القول إنّ رحلة ذي القرنين الواردة في الآيات أعلاه كانت رحلة في الفضاء إلى كواكب أخرى[2]، ولا سيما أنّه قد وردت مجموعة كبيرة من الأحاديث تشير إلى هذا الموضوع من قبيل ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في بيان ما ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ إذ قال: سخر له السحاب، ومدَّ له في الأسباب فكان عليه الليل والنهار سواء[3]، والمصاحبة التي يمكن رصدها في هذه الموارد هي أسباب السماوات؛ لذا يمكن أنْ تعدُّ هذه المصاحبة من نمط "المصاحبات الوطيدة" بلحاظ قوة التنبؤ، إذ تكون درجة التوقع فيها عالية؛ فإذا سمع شخص "... يرتقوا في الأسباب أو "فليمدد بسبب..." يتوقع- على الفور- مفردة "السماء"، لقوة الالتحام بين هذين العنصرين المتصاحبين.

٧ – تصاحب لفظ طبق مع لفظة السماء فقط من دون ذكر الأرض، أو أي شيء آخر في موردين هما قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾[4]، وكذا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾[5]، فتجد في هذين الموردين أنّ دلالة طبق قد انصرفت في القرآن الكريم إلى أطباق السماء[6] وقد وردت لفظة طبق في مورد آخر دون أنْ تضاف

(١) سورة الكهف: ٨٤ – ٩٤.
(٢) ينظر: الطور الاستخلاف، عالم سبيط: ٣٩ – ٥٨.
(٣) النور المبين، الجزائري: حديث: ١٨.
(٤) سورة الملك: ٣.
(٥) سورة نوح: ١٥.
(٦) ينظر: طور الاستخلاف: ٣١١.

إلى شيء آخر وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾[1]؛ ولمَّا كانت آيات سورة الانشقاق قد جاءت في مورد الحديث عن قضية مستقبلية سوف تحدث بعد حصول الشفق ووسق الليل، واتساق القمر فيمكن أنْ يحتمل البحث أنْ تكون في هذه الآيات إشارة إلى إمكانية الارتقاء في السماء الذي سيحدث في مستقبل هذه الدنيا. ومن ثَمَّ فيكون المراد من ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ هو الانتقال من سماء إلى سماء في مستقبل هذه الدنيا – والله أعلم – فالمصاحبة القرآنية التي بينها السياق هي " أطباق السماء". وتُعدُّ هذه المصاحبة من نمط "المصاحبة المقيدة"[2]؛ لتلازم عناصرها وعدم قبولها للاستبدال بعنصر آخر.

٨ – ما يلفت النظر أنَّ السماء والأرض قد تصاحبت مع الفعل خفى في أكثر من مورد منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَّ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾[3] ، وكذا قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهَّ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾[4].

فالمصاحبة التي يمكن رصدها من هذا السياق هي لا يخفى شيء في السماء والارض والفعل خفى وما يشتق منه بوصفه لفظاً محورياً قد تصاحب مع لفظ البروز في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللهَّ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ للهَّ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[5]، وتصاحب مع الفعل تعرضون في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾[6] ، ومع الصدور كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُّ وَيَعْلَمُ مَا

(١) سورة الانشقاق ١٦ – ١٩.

(٢) المصاحبات المقيّدة لا تقبل التحويل بين عناصرها وإعادة التركيب بمعنى تلازم هذه العناصر وترابطها إذ لا ينفكّ بعضها عن بعض ومن ذلك المصاحبة الآتية: "غشيته سكرة الموت": أي شدّته، فإذا أُبدل المضاف إليه "الموت" بلفظ "الحياة" فسد المعنى تماماً لأنّ السكرة- بمعنى الشدّة- تكون أبلغ في علاقتها بالموت وآلامه. فاللفظ "سكرة" يصاحب اللفظ "موت" ويلازمه ولا يقبل إعادة توزيعه. ينظر: المصاحبة المعجمية: ١١٨-١١٩.

(٣) سورة آل عمران:٥.

(٤) سورة ابراهيم :٣٨.

(٥) سورة غافر:١٦.

(٦) سورة الحاقة:١٨.

فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾[1]؛ لذا يمكن أنْ تعد هذه المصاحبة من نمط المصاحبة الحرة لكونها تقبل جدولياً التبادل الحر.

٩ – تنوعت الألفاظ التي تبين كيفية خلق السماء من قبيل قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾[2]، و ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ﴾[3]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾[4]، ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا﴾[5]، ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[6]، ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾[7]، ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾[8]، ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾[9]، ﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾[10]، ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ﴾[11]، ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ﴾[12]، ﴿أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾[13]، ﴿يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ﴾[14]، وغير ذلك من الألفاظ لتي تصف طريقة خلق السماء، وسيظهر في المحور الثاني كيف أنّ المفسرين اختلفوا في بيان كيفية خلق السماوات لاختلاف تفسير الألفاظ التي أوردها القرآن في سياق وصف خلق السماء.

١٠– تنوعت الألفاظ التي تبين الاحداث الكونية التي تبين ما سوف يقع في السماء والأرض من أحداث كونية مستقبلية منها قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ

(١) سورة آل عمران:٢٩.
(٢) سورة البقرة:٢٢.
(٣) سورة البقرة:٢٩.
(٤) سورة الانبياء:١٦.
(٥) سورة الانبياء: ٣٢.
(٦) سورة لقمان:١٠.
(٧) سورة الصافات: ٦.
(٨) سورة فصلت:١٢.
(٩) سورة ق:٦.
(١٠) سورة الغاشية:١٨.
(١١) سورة الأنعام: ١٤.
(١٢) سورة الأنعام:١٠١.
(١٣) سورة الانبياء:٣٠.
(١٤) سورة فاطر:٤١.

لِلْكُتُبِ﴾[1]، ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾[2]، ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾[3]، ﴿أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ﴾[4] ، ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴾[5]،﴿ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾[6]، ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾[7]، ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾[8]، ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾[9]، ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾[10]، ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾[11]، ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ﴾[12]؛ لذا يمكن أنْ تعد هذه المصاحبة من نمط المصاحبة الحرة ؛ لكونها تقبل جدولياً التبادل الحر.

١١- جعل القرآن الكريم وجود السماوات والأرض أجلاً محدداً للخلود في الجنة، وذلك باستعمال لفظي دام وخلد في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[13] ، والمصاحبة التي بيّنها السياق هي الخلود بدوام السموات والأرض، واللفظ خلد بوصفه لفظا محورياً تصاحب مع جنات ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾[14]، وتصاحب مع المركب جنات الفردوس ﴿جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٠٧ خَالِدِينَ فِيهَا﴾[15]، وتصاحب مع المركب جنات عدن ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾[16]، وتصاحب

(١) سورة الأنبياء:١٠٤.
(٢) سورة الفرقان:٢٥.
(٣) سورة الرحمن:٣٧.
(٤) سورة الملك ١٦.
(٥) سورة المعرج: ٨.
(٦) سورة المزمل:١٨.
(٧) سورة المرسلات:٩.
(٨) سورة التكوير:١١.
(٩) سورة الانفطار:١.
(١٠) سورة الانشقاق:١.
(١١) سورة المرسلات: ٩.
(١٢) سورة مريم:٩٠.
(١٣) سورة هود: ١٠٧.
(١٤) سورة آل عمران: ١٥.
(١٥) سورة الكهف: ١٠٨.
(١٦) سورة طه : ٧٦.

مع جنات النعيم ﴿جَنَّاتُ النَّعِيمِ ۝٨ خَالِدِينَ فِيهَا﴾[١]، وتصاحب مع الغرفة ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ۝٧٥ خَالِدِينَ فِيهَا﴾[٢]، وتصاحب مع الجنة- غرفا ﴿الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾[٣]، وتصاحب مع النار كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾[٤]، وتصاحب مع جهنم ﴿طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾[٥]، وتصاحب مع المركب نار جهنم ﴿نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾[٦]، وتصاحب مع المركب أبواب جهنم ﴿أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾[٧]، وتصاحب مع السعير ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝٦٤ خَالِدِينَ فِيهَا﴾[٨]، وتصاحب مع القيامة ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ۝١٠٠ خَالِدِينَ فِيهِ﴾[٩]؛ لذا يمكن أنْ تعدّ هذه المصاحبة من نمط المصاحبة الحرة لكونها تقبل جدولياً التبادل الحر.

بَيْد أنَّ حديث القرآن الكريم عن دخول ﴿الَّذِينَ سُعِدُوا﴾ الجنة ووصفه بلفظة خالدين التي تصاحبت بدورها مع المركب ما دامت في قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ يجعل البحث يضع علامة استفهام متلوة بعلامتي تعجب؟!!؛ وذلك أنّ القرآن الكريم يجعل خلود ﴿الَّذِينَ سُعِدُوا﴾ مشروطاً بدوام وجود السماء والأرض، وسنقف على محاولة الإجابة على هذا الاستفهام في المحور الثالث من هذا المبحث.

المحور الثاني: خلق السماء والأرض وما يصاحبه من ألفاظ

بَيَّنا في المحور الأول من هذا المبحث كيف أنّ الألفاظ التي تبين كيفية خلق السماء والأرض قد تنوعت من قبيل قوله تعالى: ﴿السَّمَاءُ بَنَاهَا ... وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾[١٠]، و ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾[١١]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ

(١) سورة لقمان: ٩.
(٢) سورة الفرقان: ٧٦.
(٣) سورة العنكبوت: ٥٨.
(٤) سورة محمد: ١٥.
(٥) سورة النساء: ١٦٩.
(٦) سورة التوبة: ٦٨.
(٧) سورة النحل: ٢٩.
(٨) سورة الاحزاب:٦٥.
(٩) سورة طه: ١٠١.
(١٠) سورة النازعات: ٢٧ – ٣٠.
(١١) سورة البقرة:٢٩.

وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾[1]، ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ ... وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا﴾[2]، ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾[3]، ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾[4]، ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾[5]، ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾[6]، ﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ... وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[7]، ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[8]، ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[9] ، ﴿أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾[10]، ﴿يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾[11]، وغير ذلك من الألفاظ التي تصف طريقة خلق السماء والأرض، وقد اختلف المفسرون في بيان كيفية خلق السماوات والأرض، نتيجة لاختلاف تفسير الألفاظ التي أوردها القرآن في سياق وصف كيفية خلق السماء والأرض.

فلو نظرنا في آراء المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[12] نجد أنّ بعض المفسرين قد ذهبوا إلى أنّ الأرض قد خلقت قبل السماء مستدلين على ذلك بورود حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ الذي يفيد الترتيب من ذلك قول الطبري: أخبر ابن اسحاق أنَّ الله جلَّ ثناؤه استوى إلى السماء بعد خلق الأرض وما فيها[13].

ومثل ذلك قول الشيخ الطوسي في تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ ظاهره يوجب أنَّه خلق الأرض قبل السماء؛ لأن ﴿ثُمَّ﴾

(١) سورة الانبياء:١٦.
(٢) سورة الانبياء:٣١-٣٢.
(٣) سورة لقمان:١٠.
(٤) سورة الصافات:٦.
(٥) سورة فصلت:١٢.
(٦) سورة ق:٦.
(٧) سورة الغاشية:١٨-٢٠.
(٨) سورة الأنعام: ١٤.
(٩) سورة الأنعام:١٠١.
(١٠) سورة الانبياء:٣٠.
(١١) سورة فاطر:٤١.
(١٢) سورة البقرة:٢٩.
(١٣) سورة تفسير الطبري: ١/ ٢٦٧.

للتعقيب وللتراخي[١]، ويصّر الشيخ الطوسي على رأيه في سبق الأرضِ السماءَ في الخلق حتى مع ورود قوله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا... وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾[٢]، فهذه الآية ظاهرة الدلالة في أنّ السماءَ سبقت الأرضَ في الخلق ومن ثَمَّ فهذه الآية تناقض ما ذهب إليه من رأي ؛ بَيْد أنّه يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا... وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ هذا ظاهر التناقض، قلنا: المعنى في ذلك خلق الأرض قبل السماء غير أنّه لم يدحها، فلما خلق السماء دحاها بعد ذلك ودحوها بسطها ومدها[٣]، وقد وافقه على هذا الرأي الشيخ الطبرسي ونقل قوله هذا بعينه[٤].

وقريب من هذا القول ما ذكره البغوي في قوله: قال ابن كيسان، والفراء، وجماعة من النحويين: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي: أقبل على خلق السماء، وقيل: قصد؛ لأنّه خلق الأرض أولاً ثُمَّ عمد إلى خلق السماء[٥]، فالبغوي في قوله هذا يثبت أنّ الأرض خلقت أولا ومن ثمَّ خلقت السماء، وهذا ما أكده الزمخشري في قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي: قصد إليها بإرادته ومشيئته بعد خلق ما في الأرض[٦]، ولم يخرج أبو حيان الأندلسي عن هذا الرأي ، بل يورد الأدلة التي تؤكد أنّ الارضَ سبقتْ السماء في الخلق، ونلمس هذا في قوله وهو يفسر قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ هذه الآية تقتضي أنَّ الأرض وما فيها خلق قبل السماء، وذلك صحيح ، ثُمَّ دُحيتْ الأرض بعد خلق السماء[٧]

وأمَّا في قوله تعالى:﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝١١ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ

(١) التبيان في تفسير القرآن، الشيخ الطوسي: ١/ ١٧٨.
(٢) النازعات ٢٧ – ٣٠.
(٣) التبيان في تفسير القرآن: ١/ ١٧٨.
(٤) ينظر: تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسي: ١/ ١٣٨.
(٥) معالم التنزيل، البغوي: ١/ ٢٨١.
(٦) الكشاف، الزمخشري: ١/ ٢٤٥.
(٧) البحر المحيط، ابو حيان الأندلسي: ١/ ٣٤٩.

أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[1] ، فنجد أنَّ الشيخ الطوسي يصرح بأسبقية خلقِ الأرضِ على السماء أيضاً وذلك في قوله: وقوله " ثم استوى إلى السماء " يفيد أنّه خلق السماء بعد خلق الأرض وخلق الأقوات فيها[2] فيجعل الأرض سابقة على السماء بل الماء سابق لها. وقريب من هذا ما صرح به القرطبي في تفسير هذه الآية إذ قال: وَ﴿ثُمَّ﴾ تَرْجِعُ إِلَى نَقْلِ السَّمَاءِ مِنْ صِفَةِ الدُّخَانِ إِلَى حَالَةِ الْكَثَافَةِ، وَكَانَ ذَلِكَ الدُّخَانُ مِنْ تَنَفُّسِ الْمَاءِ حِينَ تَنَفَّسَ[3] وهذا يعني أنَّ مادة السماء الاولى الدخان هو بخار الماء، لكننا نعلم أنَّ الارضَ هي جزء من السماء، وأنّ السماء هي عبارة عن تلك النجوم والكواكب ، والنيازك والشهب والأحجار والغبار، والأرض هي واحدة من مكونات السماء. وبذلك يجعل القرطبي الأرض سابقة للسماء بالخلق، فكيف تم ذلك، وأين كانت الارض دون سماء ؟ وتراه يجعل السماء الدخان بخار ماء ، لكنك تجد في السماء العديد من الغازات والمعادن والمواد المختلفة العناصر !! فمن أين جاءت كل هذه المواد ؟!! ثمَّ إنّه تعالى قال في الآية التي سبقت هذه الآية ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾[4]، ومعلوم أنَّ تقدير الأقوات هو للأحياء؛ ولنا أنْ نتساءل: كيف توجد حياة من دون سماء ؟!! فالحياةُ تحتاجُ الشمسَ، وتحتاجُ الأغلفةَ الغازيةَ لتقيها شرَّ الاشعاعاتِ الشمسيةِ المضرةِ، أكانت هناك حياة من دون كل هذا أم أنّ كل هذا موجود قبل الحياة ولكنهم لا يعدونها سماءً ؟!! اذاً ما هي السماء بنظرهم؟ ثم إنَّه تعالى يقول: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾[5]، فالسماء موجودة إذا قبل الاستواء إليها، وسماها سماءً، إنّما الذي حصل أنَّه ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾[6] فهذه الآية إذاً لا تتحدث عن خلق السماء كما فهم الشيخ الطوسي والقرطبي بل إنّها تتحدث عن قضاء السموات السبع وجعل في كل سماء أمرها.

والحقيقة أنَّ الارض هي جزء من السماء، والسماء هي عبارة عن مكوناتها من كواكب

(١) سورة فصلت:١٢.
(٢) التبيان / ج ٩ / ص ١١٠ .
(٣) تفسير القرطبي / ج ١٥ / ص ٣٤٣ .
(٤) سورة فصلت:١١.
(٥) سورة فصلت:١١.
(٦) سورة فصلت:١٢.

ونجوم بكل أشكالها. فحين يتحدث عن الأرض فهو يتحدث إذاً عن السماء، لكنّه يفصل بينهما؛ لأنّ أذهان الناس ترتكز لا شعوريا على وجود أرض وسماء، فأراد الاحاطة بالأمر من كل جهاته[1].

ولو أردنا أنْ نستعرض واحدة من الآيات التي وصفت كيفية خلق السماء، وأخذنا قوله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۝٢٩ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾[2] نجد أنَّ القرطبي جعلَ البناء هنا هو عملية رفع تشبه البناء وليست بناءً حقيقيا، وذلك في قوله: بَناها أَيْ رَفَعَهَا فَوْقَكُمْ كَالْبِنَاءِ. رَفَعَ سَمْكَها أَيْ أَعْلَى سَقْفَهَا فِي الْهَوَاءِ[3]، وقريب منه قول البيضاوي: (بناها) بيَّنَ البناء فقال ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ أي جعل مقدار ارتفاعها من الأرض أو ثخنها لذاهب في العلو رفيعاً[4].

إنَّ الكلام عن العلو والفوق سابق لظرف النص؛ حيث إنَّ الفوق هو جهة نسبية، فهو فوق ماذا ؟ فإذا قلت إنَّه فوق الأرض فأنت فضلا عن إنَّك تخالف الواقع ؛ لأنَّ السماء ليست فوق الارض بل محيطة بها بل إنَّ الارض هي من السماء، فإنك بقولك هذا تجعل الارض سابقة على السماء وهذا خلاف النص الذي يبين لنا أنَّ السماء كانت دخاناً قبل خلق الأرض، كما أنّ هذا الكلام يتصادم مع العلم ، ومع أحدث النظريات التي تبين كيفية تكون المجموعة الشمسية. ثم إنَّ قوله إنَّه رفعها ! رفعها عن ماذا ؟ أين كانت ثم رفعها ؟ وكيف؟ وكيف أصبحت كالبناء ؟! إنّه تعالى يقرر أنّه بناها فكيف صارت كالبناء ؟! لماذا التشبيه ؟ إنهّا فعلا بناء كما يصرح النص وليست كالبناء كما يرى القرطبي. فالقرآن يقول: ﴿بناها﴾ والمفسر يقول يعني: رفعها، وحينما يقول القرآن ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ المفسر يقول أي: أعلى! ولا أعلم حقا ما أدراهم أنّه أراد هذه المعاني ولم يرد حرفية ما يقول ؟! ثم كيف أعلى سقفها في الهواء ؟ لعله يعني الفضاء، إذ إنّ الهواء فقط في الغلاف الجوي والسماء أبعد من ذلك بكثير، ثم إنّك إذا علمت أنَّ السماء هي غازات فإنّ الهواء هو ذاته سماء وليس السماء

(١) الانفكاك نسق فلسفي جديد، سلام عبد الهادي : ٢٩٠.
(٢) سورة النازعات: ٢٧ – ٣١.
(٣) تفسير القرطبي / ج ١٩ / ص ٢٠٣ .
(٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي: ٥/ ٣٦٠.

مرفوعة فيه. وكيف جعل السمك يعني السقف ؟ وكيف يكون للسماء سقف ؟! هل يعني الحدود الخارجية للسماء ؟ وهل الحدود تلك مفصولة عن باقي السماء ؟! كلها استفهامات تثيرها تفاسيرهم ولا تجيب عنها، بل إنّها تزيد النص غموضاً[١]، وفي بيان المراد من لفظة (سمك)، ذكر الطبري أكثر من معنى منها: رفع بنائها، رفعها بغير عمد، رفعها مستوية[٢]، ووضح أبو حيان الاندلسي المراد من لفظة سمك بقوله: (السمك) الارتفاع الذي بين سطح الماء التي تليها وسطحها الأعلى الذي يلي فوقها[٣]، وعند ابن عادل الدمشقي أنَّ سمكت الشيء: رفعته في الهواء، سمك هو أي: ارتفع سموكاً[٤].

وكلها معانٍ مسبقة ملقاة على النص لا خارجة منه. وجعلوا اغطاش الليل، واخراج الضحى مرهونا بالشمس، إذ أنّ ﴿أَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ عند الزجاج تعني: أظْلَمَ لَيْلَها ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾: أظهر نورها بالشمس[٥] وقريب من هذا الرأي ما ذكره القرطبي في قوله: وَأَضَافَ اللَّيْلَ إِلَى السَّمَاءِ لِأَنَّ اللَّيْلَ يَكُونُ بِغُرُوبِ الشَّمْسِ، وَالشَّمْسُ مُضَافٌ إِلَى السَّمَاءِ[٦] وأضاف ﴿وَأَخْرَجَ ضُحاها﴾ أي أبرز نهارها وضوءها وشمسها[٧]. فإذا كانت الشمس لم تخلق بعد كيف يجعل الليل بغروب الشمس ؟ فمن المعلوم أنَّ السماء مظلمة؛ لأنّ الضوء لا يرى والأجسام ترى في الفضاء لانعكاس الضوء عليها، فإذا لم تكن هناك بعد أي أجسام؛ – لأن السماء في حالة بناء – كيف سيخرج النهار بالشمس ؟ وإنّ غياب الشمس هي حركة نسبية للأرض لا للسماء، فالشمس لا تغيب عن السماء أبدا، إنّما تغيب عن أحدِ أوجهِ الأرض فقط عندما تكون بالاتجاه المعاكس[٨].

إنَّه يتحدث عن بناء السماء وليس عن مجموعتنا الشمسية، ويورد أربعة أفعال هي

(١) ينظر: الانفكاك نسق فلسفي جديد: ٢٩٠ – ٢٩٣.
(٢) ينظر تفسير الطبري / ابو جعفر الطبري (جامع البيان ط هجر ، نسخة الكترونية / المكتبة الشاملة) / ج ٢٤ / ص ٨٩ .
(٣) البحر المحيط، ابو حيان الاندلسي: ٩/ ٤٢٠.
(٤) اللباب في تفسير الكتاب، ابن عادل الدمشقي: ١٢/ ٣٥٠.
(٥) معاني القرآن واعرابه / الزجاج / نسخة الكترونية (المكتبة الشاملة) / ج ٥ / ص ٢٨٠ .
(٦) تفسير القرطبي / ج ١٩ / ص ٢٠٤ .
(٧) تفسير القرطبي:١٩/ ٢٠٥.
(٨) ينظر: الانفكاك: ٢٨٥ – ٣١٠.

تفاصيل عملية البناء، رفع سمكها، سواها، أغطش ليلها، أخرج ضحاها. والوقوف على دلالة هذه الألفاظ يحتاج إلى بحث مستقل ليس هنا أوان الخوض فيه.

ومن ثَمَّ فرفع السمك تصف عملية الرفع وتعني التزايد سواء أكان بالزيادة أم بالنقصان، فالرفع هو من الرفعة والعلو، فأنت حين تتزايد بزيادة الخير فإنّك ترتفع، وكذلك حين تتناقص بنقصان الشر، أيضا ترتفع. النتيجة أنّ الرفع تحصيل عملية التزايد تلك . والسُمك يعطي معنى عاماً هو تكاثف الأجزاء وتكتلها بصورة غير منظورة لتكون ملاحظة فيما بعد. حينما يتم رفع هذه العملية فهذا يعني احاطتها بعناية كاملة من أجل أنْ تأخذ كامل مدياتها. الناتج هو تكون مادة متكاثفة ومتشابهة (متجانسة)... وظاهرة على نحو ما. إذا فهذه حلقة بين العدم والوجود[١].

فالسُمك على هذا هو ليس اسما للمادة المرفوعة، بل فعل وحركة، إنّه يرفع من شدة السمك، فإذا كانت السماء من مادة متجانسة سماها دخان فإنّ عملية السمك هي أشبه ما تكون بالتماسك والتكاثف؛ لذلك سمي البعد الثالث للأجسام سمكا، وهي قريبة من السبك التي هي بدورها أيضا عملية تصليد السائل في شكل معين. فالناتج أنّه رفع السمك، اي تزايد وتكاثف. وقريب من هذا المعنى ما ذكره الشيخ الطوسي في قوله: (رفع سمكها) يعني ارتفاعها، فالسمك مقابل للعمق، وهو ذهاب الجسم بالتأليف في جهة العلو، وبالعكس منه العم[٢] ولكن معنى هذا الكلام إنّه رفع ارتفاعها، أي زاد في بعد الارتفاع. ولكن الارتفاع كجهة هو أمر نسبي ، فبالنسبة لأي شيء رفع السمك ؟ للأرض؟ ها نحن نعود من جديد الى مشكلة أسبقية خلق الارض على السماء. وذهب ما ذهب اليه المفسرون من اغطاش الليل ، واخراج الضحى من أنّها عمليات مرتبطة بغروب الشمس وشروقها [٣].

سواها : هي مجموعة من العمليات التعديلية لغرض التسوية بقصد ولهدف معين. وهذا قريب مما ذهب إليه السيد الطباطبائي في قوله: وتسويتها ترتيب أجزائها وتركيبها

(١) ينظر: الانفكاك: ٢٩٤.
(٢) التبيان / ج ٩ / ص ٢٦٠ .
(٣) ينظر التبيان / ج ٩ / ص ٢٦٠ .

بوضع كل جزء في موضعه الذي تقتضيه الحكمة[١]

وأمّا الحديث عن (أغطش ليلها)، و(أخرج ضحاها) فيحتاج إلى بحث مفصل في بيان دلالة هذه الألفاظ ، وما يتصاحب معها من تراكيب أخرى لها دور في بيان عملية التكاثف التي بلغت من شدة الاندماج النووي الذي ولد بدوره سلسلة من الانفجارات، عندها ظهر الضوء؛ إذ إنّ الشمس كتلة من الغازات (الهيدروجين والهليوم يمثلان القسم الاعظم) وهي عبارة عن مجموعة انفجارات هيدروجينية . وكل هذا منطقي. وليس هنا محلَّ الإفاضة في هذا الموضوع.

ثم تنتقل الآيات لتصف عملية دحو الأرض، لكنّها تباعد بين الحدثين بقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ وهذا الانتقال لا يجعل من تكون الأرض سابقا على بناء السماء، وهذا ما وضحه النسفي في قوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ بسطها، ...فدحيت من مكة بعد خلق السماء[٢]، ووضح ابن الجوزي المراد من قوله تعالى: ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي بعد خلق السماء (دحاها) أي: بسطها[٣] ومثل ذلك نجده عند الثعالبي[٤]. نعم إنَّ دحو الارض متأخر عن تكونها إذا فهمنا أنّ عملية الدحو وقعت على كتلة الارض المتكونة أصلا، لكن يمكننا فهم الامر على أنّ عملية تشكل الكرة الارضية وتكونها هي بشكل الدحية، أي إنّك عندما تشكل كرة من الطين فإنّ عملية تشكيل صورتها الكروية مرافقا لعملية تكوين كتلتها ، أو تجميع كتلتها من الطين، فلو أنّك باشرت بأخذ قبضة من الطين ثم أخذت قبضة أخرى ودمجتها وأخذت تكورهما ثم أخذت ثالثة ودمجتها واستمررت بتكويرهما ، وهكذا فإنّ هذه العملية يمكنك تسميتها تكوير وصنع أو تكوين في الوقت نفسه، والدحو إنّها عملية تشكيل الأرض بالشكل البيضوي التي هي عليه الآن.

هذا التحليل قائم بمجهولية ماهية تلك السموات، فنحن لا نقطع القول بشيء على الاطلاق؛ لأنّنا مهما بلغنا سنظل ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٥] ولا ننساق خلف

(١) الميزان / ج ٢٠ / ص ١٩٠ .
(٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي: ٤/ ١٥٨.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي: ٦/ ١٢٠.
(٤) ينظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، الثعالبي: ٤/ ٢٠٢.
(٥) سورة الاسراء: ٨٥.

غرورنا لندعي أنّنا جئنا بالحق؛ ذلك لأنّ تجربتنا مع الحقيقة خلال التاريخ تخبرنا أنّ الكثير من الحقائق التي اعتبرت في مرحلة ما حقيقة مقطوعة الصحة وبديهية اتضحت الآن وبالتجربة العلمية انها غير ذلك، والأمثلة لا حصر لها. لكننا نحاول تقديم فهم محتمل لا يتعارض مع لغة القرآن من جهة والعلم الحديث من جهة أخرى إنَّ أداة التراخي ﴿ثُمَّ﴾ عملت عملها، وهو العطف على الفعل والتراخي الزمني، ولكن منع عليها العمل بالعطف على الزمن، أي أنّه تعالى حين قال ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ هو عطف على الأفعال وليس على الازمان يخاطبنا عن سبع سموات على شكل طبقات طباقا والقمر فيهن، والشمس أيضا. عليه فإنّ يومي القضاء قد مرا فعلا.

اذاً ان عمل ﴿ ثُمَّ﴾ هو العطف على الافعال، لكن هذا العطف يحمل تراخيا زمنيا. ولقد بينا القول بأسبقية خلق السماء على الأرض، ولكن لا يمكن الفصل بينهما؛ لأن عملية بناء السماء هي الخطوات الاولى لبناء الأرض، وكلها عملية خلق، ولازالت هذه العملية مستمرة، ولكن اتخاذ السماء والأرض الشكل الذي نعرفه اليوم تطلب يومين[1]. حيث إنَّ أول خطوة للسماء انها كانت دخان، وقلنا إنَّه مادة السماء بكل ما تحوي، فهو اذاً مادة الارض أيضا؛ لذلك قال ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ فهو يخاطب السماء والأرض، لكننا نعلم أنّه لم يكن هناك أرضا بعد والسماء غير هذه السماء ولكن مجرد دخان .

وتكمن الإجابة بأنَّه كما قال ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[2] فهنا هو يخاطب الارادات، فيأمرها أنْ تتخذ ماهيتها؛ لذلك هو قال ﴿ائْتِيَا﴾ ولم يقل تعالا او جئن؛ لأنّ الاتيان يختلف عن المجيء؛ ذلك أنَّ المجيء حركة نهاية الفعل فتقول ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[3] او ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾[4]

(١) ينظر: الانفكاك: ٣٠١ – ٣٠٣.
(٢) سورة يس:٨٢.
(٣) سورة ق:١٩.
(٤) سورة الاسراء:٨١.

فقد تم المجيء وانتهى، لكن حين تقول ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1] فإنّه يقول أنّه أتى لكنّه لم يصل بعد، هذا يعني أنّه لازال في حالة اتيان ولما ينتهي بعد من تلك الحالة، إذاً فهو يأمر السماء والارض أنْ تأتيا، وهذا هو الاستعمال الدقيق لتمثيل حركة السماء والأرض نحو هدف مقصود، وهذا يتطلب زمنا؛ لذا فإنّ عملية الخلق الكلية تطلبت ستة أيام وعملية جاهزية السماء والأرض لاحتواء الحياة ، وتطورها هو في يومين .

إذاً فالسماء والارض لكي توجدا وفقا لإرادتيهما بالوجود فيجب إذاً أنْ يتحركا، إذ أنّ التوقف والسكون هو انقطاع، والحركة تلك هي إمّا باتجاه الفناء أو باتجاه الاستمرار، وكلا الاتجاهين هو إتيان، فهما في خيارين الاتيان الفنائي ، أو الاتيان الوجودي، ولقد اختارا الوجودي ، وهذا الاختيار طوعي ومحبب وليس مكروها، فهما إذاً يختاران ماهيتهما بحرية ضمن قوانين الحركة والتطور، وذلك طبعا يتطلب زمنا يتناسب وسلسلة التغيرات تلك[2].

المحور الثالث: الخلود في الجنة بدوام السماء والأرض

بيّنا عندما كنا في صدد الحديث عن المصاحبات المعجمية أنَّ لفظتي السماء والأرض تصاحبتا مع الجنة، في قوله تعالى ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[3] واستفهمنا في حينها عن أنَّ القرآن الكريم يَعِدُ ﴿الَّذِينَ سُعِدُوا﴾ بأنّهم سيخلدون في الجنة بَيْد أنَّ هذا الخلود مشروط بدوام وجود السماوات والأرض، ونحن نعرف أنَّ الجنة الأخروية تكون بعد طي السماء ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾[4] ، وبعد أنْ تُدك الأرض والجبال ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [5]، وغير ذلك من الأحداث الكونية التي تبين كيف أنّ الشمس سوف تكور والنجوم تنكدر، والجبال تسير، والعشار تعطل، والوحوش تحشر، والبحار سوف تسجر ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْجِبَالُ

(١) سورة النحل:١.
(٢) ينظر: الانفكاك: ٣٠٢.
(٣) سورة هود: ١٠٨.
(٤) سورة الانبياء:١٠٤.
(٥) سورة الحاقة:١٤.

سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾[١]، وقريب منه قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾[٢]، ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾[٣]، و ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾[٤]، ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾[٥]، ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾[٦]، وكذا قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾[٧]، وغير ذلك من الآيات القرآنية التي تبين الأحداث الكونية التي ستحدث في الكون أجمع، وهنا يستفهم البحث عن نوع الجنة التي سيخلد فيها ﴿الَّذِينَ سُعِدُوا﴾، ويتساءل أهي الجنة الأخروية التي تكون بعد اندثار المجموعة الكونية بما تحت افلاكها، وقيام القيامة، وانتهاء زمن التكليف ، أم هي جنة أخرى تقع في عالمنا هذا وفي مستقبل هذه الدنيا؟ ، ولا سيما أنَّ القرآن الكريم وصف الجنان بأكثر من لفظ، وأطلق على الجنات أسماء متعددة منها ﴿جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ﴾[٨]، و﴿جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾[٩]، ومنها ﴿جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾[١٠] ، ومنها ﴿جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾[١١] ، ومنها ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾[١٢] وتوجد أيضاً ﴿جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾[١٣]، وتوجد أيضاً﴿جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾[١٤] ، وتوجد ﴿جَنَّاتٍ

(١) سورة التكوير: ١– ٦.
(٢) سورة الانشقاق: ١ – ٤.
(٣) سورة الطور: ١٠٩.
(٤) سورة المعارج:٨.
(٥) سورة المرسلات: ٩.
(٦) سورة الانفطار ١ – ٥.
(٧) سورة الانشقاق: ١ – ٥.
(٨) سورة الكهف:١٠٧.
(٩) سورة الشعراء:٨٥.
(١٠) سورة الفرقان:١٥.
(١١) سورة النجم:١٥.
(١٢) سورة الرعد:٢٣.
(١٣) سورة الحاقة:٢٢.
(١٤) سورة الأنعام:١٤١.

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾[1]. فتعدد أسماء هذه الجنات وأوصافها يدفع الباحث إلى احتمال أنْ تكون بعض هذه الجنات تكون في الدنيا ، ولاسيما أنّ القرآن قد وصف مزرعة من مزارع الدنيا بلفظ الجنة كما في قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا .... وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾[2]. وهي قصة أوردها القرآن الكريم في سياق وصف الحوار الذي بين مؤمن بالله وكافر بالله وجاحد لنعمته ومنكر للمعاد.

يبدو أنَّ الإجابة على هذا الإشكال تكمن في فَهْمِ المرادِ من المصاحبات المعجمية التي صاحبت لفظتي السماء والأرض في هذه الآية ومنها لفظة ﴿خَالِدِينَ﴾، و﴿مَا دَامَتِ﴾، وكذلك لفظة الأبد التي وردت في آيات أخرى متصاحبة مع لفظة خالدين من قبيل قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾[3]، إذ يبدو من خلال التدبر في دلالة هذه الألفاظ أنّ المراد من ألفاظ الخلود والأبد أنْ تكون تعابير وصفية للحالة، ولا تمثل حقيقة استمرار الخلق وبقائه[4]، فالخلود لا يعني الاستمرار كما هو متعارف عليه بل هو مشتق من الركون والسكون وهو بذلك أقرب إلى الاستقرار، ولمَّا لم يكن هناك ساكن في الوجود فيكون المراد من الخلود هو الحركة المنتظمة، وهذا المعنى المستفاد من قولك: خلد إلى النومأي: استقر بحركة منظمة؛ حيث إنَّ حركةَ الجسمِ في أثناء النوم حركة مستقرة ومنتظمة[5]، وحينما يقول: هم خالدون فيها فهذا يعني أنّهم مستقرون فيها بحركة منتظمة. ولو كان معنى الخلود هو الاستمرار وعدم الفناء لما أتبعها بلفظة أبدًا التي تدلُّ على مدة محددة، لكنه يصف حركتهم فيها بالاستقرار ويلحقه بوصف هذا الاستقرار من أنّه مستمر ضمن مدة محددة أسمها الأبد[6].

وما يدلُّ على ذلك أيضاً أنَّ لفظ أبد لم توظف في المعجم العربي للدلالة على الاستمرار

(١) سورة الجادلة:٢٢.
(٢) سورة الكهف ٣٢ – ٣٥.
(٣) سورة التوبة:١٠٠.
(٤) الانفكاك نسق فلسفي جديد: ٣١٠.
(٥) المرجع نفسه: ٣١٠.
(٦) المرجع نفسه: ٣١٠.

بلا انقطاع ، بل وظفت للدلالة على مدة زمنية محددة تتصف بالطول من ذلك قول الخليل: تأبد فلان: طالت غربته[١]، وكذلك قول الصاحب بن عباد: آباد الدهر: طوال الدهر، وأبَدَ بالمكانِ: أقامَ فيه، ويقال للطير التي تقيم بأرضٍ شتاءها وصيفها: أبداً[٢]، وعند ابن فارس أنَّ الهمزة والباء والدال يدلُّ بناؤها على طول المدَّةِ[٣]، ومن موارد استعمال لفظة أبد للدلالة على طول المدة قول العرب: لا آتيه أبَدَ الأبَديَّةِ، وأبَدَ الآبدين، وأبَدَ الأبَدِ، وأبَدَ الأبيد[٤].

وبذلك فلفظة الأبد لا تعني الاستمرار اللا نهائي، إذ الابد كـ الأمد يدلُّ على مُدَّة محددة من الزمن لكن الفارق في الموضوع أنّهم مستقرون ، ومستمرون بالبقاء إلى نهاية المدَّة المحددة[٥].

وحتى في القانون الوضعي نجد هناك فرقاً بين السجن المؤبد والسجن مدى الحياة، فإنّ الحكم على السجين بالسجن المؤبد يعني الحكم عليه بالسجن لمدة عشرين عاماً، وهذا ما ورد في كتاب العقوبات رقم ١١١ لسنة ١٩٦٩م والذي ينص على إنَّ السجن هو إيداع المحكوم عليه في إحدى المنشأت العقابية المخصصة قانوناً لهذا الغرض لمدة عشرين سنة إنْ كان مؤبداً[٦]، فالقانون صريحاً بأنّ المراد من السجن المؤبد هو السجن لمدة عشرين سنة أمّا إذا ارادوا الحكم على السجين حتى يموت فيكون ذلك إذا صرحَّ القاضي بالحكم عليه بالسجن مدى الحياة، وهذا ما وضحه قانون العقوبات رقم ١١١ لسنة ١٩٦٩ نفسه، إذ جاء فيه: شددت عقوبة السجن المؤبد إلى السجن مدى الحياة، ولا تنتهي إلاّ بوفاة المحكوم عليه بموجب أمر تعديل قانون العقوبات وقانون أصول المحاكمات الجزائية رقمه ٣١ صادر بتاريخ ١٠/ ٩، ٢٠٠٣ [٧]ومن ثَمّ فعمر الإنسان الشخصي قصيرٌ جداً قياساً بالعمر

(١) العين، مادة أبد.
(٢) المحيط في اللغة، مادة أبد.
(٣) معجم مقاييس اللغة، مادة أبد.
(٤) الصحاح في اللغة، مادة أبد.
(٥) الانفكاك نسق فلسفي جديد: ٣١٠.
(٦) العقوبات رقم ١١١ لسنة ١٩٦٩ المعدل، أصول محاكمات جزائية، تاريخ التشريع: ١٥/ ١٢/ ١٩٦٩، المصدر: الوقائع العراقية، رقم العدد ١٧٧٨، الصفحة: ٧٦.
(٧) المرجع نفسه: الصفحات :٧٦.

النوعي للإنسان، والانسان يعيش ويموت في جزء بسيط جداً من هذا العالم، أمّا في اليوم المستقبلي الذي يظهر فيه صاحب الأمر عجل الله فرجه، وكذلك في يوم القيامة فإنَّ الأمر يختلف ؛ لأنّ الماهية تختلف.

ومن ثَمَّ فقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ يشير إلى استمرار بقاء ﴿الَّذِينَ سُعِدُوا﴾ في تلك الجنة التي قد تكون في مستقبل هذه الدنيا ولمَّا كان الأمر في مستقبل هذه الدنيا يختلف عما هو عليه في يومنا هذا على اعتبار أنّ الأمر في ذلك الوقت سيكون موكولاً إلى صاحب الأمر عجل الله فرجه وماهية ذلك اليوم ستختلف عما هي عليه في هذا اليوم، وفي السنة النبوية وردت عشرات الأحاديث التي تُنبئ بأنّ عمر البشرية سيطول عندما يخرج صاحب الأمر عجل الله فرجه بحيث يرى المؤمن أحفاد أحفاده من ذلك ما روي عن المفضل بن عمر أنّه قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنّ قائمنا إذا قام أشرقت الارض بنور ربها، واستغنى العباد عن ضوء الشمس، وذهبت الظلمة، ويعمر الرجل في ملكه حتى يولد له ألف ذكر...[1]، وفي المضمون نفسه روي أنّه عجل الله تعالى فرجه يبني في ظهر الكوفة مسجدا له ألف باب ويتصل بيوت الكوفة بنهر كربلاء وبالحيرة، ويعمر الرجل في ملكه عليه السلام حتى يولد له ألف ذكر[2].

ويستمر الخلود ويدوم بدوام وجود السماوات والأرض ، وبعد أنْ ينتهي ذلك اليوم وبعدها يبدأ يوم القيامة الذي تطوى فيه السماء وتنشق ويجري عليها ما وصفه القرآن من انفطار ، وكشط ومور وتدك الأرض ، وتزلزل ويجري عليها ما وصفه القرآن في الآيات التي تبين ما سيحدث في الأرض عند قيام القيامة ، عند ذلك يموت الإنسان لينتقل إلى الحساب الأخروي وما يعقبه من أهوال يوم القيامة – والله أعلم .

وحتى عندما يتحدث القرآن عن الخلود في يوم القيامة فإنّ الأمر في ذلك اليوم يختلف أيضاً؛ لأنّ الماهية تختلف، والتطور يفيد ذلك، وهو أنْ تستمر خالداً سواء أكان ذلك الخلود في الجنة أم في النار حتى نهاية ذلك اليوم.

(١) بحار الأنوار ، المجلسي، ٥٢/ ٣٣٧.
(٢) المصدر نفسه: ١٠٣/ ١٤٦.

الخاتمة والنتائج

في الختام يمكن أنْ نوجز الكلام عن أهم ما مرّ في البحث من استعراض المصاحبات اللفظيّة للسماء والأرض بالنقاط التالية :

إنَّ إنعام النظر في ما ذكره اللغويون من دلالات للفظة سمو وما يشتق منها يقود إلى أنّ جميع دلالات لفظة سمو ترجع إلى معنى عام تنضوي تحته جميع هذه الدلالات وهو العلو والارتفاع. والأرض تدلُّ على كل شيء في الأسفل يقابل السماء. وقد وردت لفظة السماء مفردة وجمعا، معرفة ومنكرة، بينما لم تأت لفظة الأرض إلّا مفردة، وجاءت معرّفة بأل والإضافة في جميع الاستعمالات القرآنية ماعدا آية واحدة. وتقدمت الإحصائيات والمواضع في تضاعيف البحث.

إنّ هناك حثاً دائماً على النظر والتفكر في خلق السماوات والأرض باستعمال الفعل المضارع ينظر وما يشتق منه، وهذه مصاحبة بين السماء والفعل ينظر، وينظرون بقصد الاعتبار ولفت النظر إلى عظمة السماء ودلالتها على عظمة خالقها.

إنَّ هناك سؤالاً يتكرر عن الذي خلق السماوات والأرض كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾[1]. وهذه الأسئلة نوع من طلب الإذعان لخالق السموات والأرض الذين يعرفونه بفطرتهم ، ثم ينكرونه بسبب قسوة قلوبهم وعماها وطغيانهم. وصرحت الآيات بأنّ الله الذي يتكبرون على أوامره ونواهيه، هو خالق السموات الأرض.

وصف القرآن الكريمُ عظمة ملكوت الله واتساع ملكه ببيان أنّ السماوات السبع وما فيها من نجوم وكواكب ، وأفلاك ومجرات وأقمار، والأرض وما فوقها وما تحتها كل ذلك تحت سلطانه، وذلك باستعمال حرف الجر اللام الذي يفيد التمليك الذي تصاحب مع لفظ الجلالة الله مكونا شبه الجملة – الخبر – لله كما في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾[2]، ومثله قوله تعالى: ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ وصف القرآن الكريم عملية الانتقال من الأرض إلى السماء باستعمال اللفظ سبب كما في قوله تعالى:

(١) سورة العنكبوت: ٦١.
(٢) سورة البقرة: ٢٠٤.

﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾(١). وقد ظهر للبحث أنّ اللفظ سبب تصاحب مع لفظة السماء فقط في جميع موارد ذكره في القرآن الكريم، وهو يبين عملية الصعود إلى السماء كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ۝٣٦ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ﴾(٢) تحدث القرآن الكريم عن عملية إنزال الماء من السماء في قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بقدرها﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾(٤)، والفعل انزل بوصفه لفظاً محورياً تصاحب مع لفظ الجلالة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ﴾(٥)، ومع الجار والمجرور ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾(٦)، و﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ﴾، ومع لفظ الكتاب ﴿إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ﴾ وصف القرآن الكريمُ عظمة ملكوت الله واتساع ملكه ، ببيان أنّ السماوات السبع وما فيها من نجوم وكواكب وأفلاك ، ومجرات وأقمار، والأرض وما فوقها وما تحتها كل ذلك تحت سلطانه، وذلك باستعمال حرف الجر اللام الذي يفيد التمليك الذي تصاحب مع لفظ الجلالة الله مكونا شبه الجملة – الخبر – لله كما في قوله تعالى: ﴿للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾(٧) تصاحب لفظ طبق مع لفظة السماء فقط من دون ذكر الأرض أو أي شيء آخر في موردين هما قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾(٨) ، وكذا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾(٩)، فتجد في هذين الموردين أنّ دلالة طبق قد انصرفت في القرآن الكريم إلى أطباق السماء. فالمصاحبة القرآنية التي بيّنها السياق هي "أطباق السماء". وتُعدُّ هذه المصاحبة من نمط "المصاحبة المقيدة"؛ لتلازم عناصرها وعدم قبولها للاستبدال بعنصر آخر.

(١) سورة الحج:١٥.
(٢) سورة غافر:٤٠.
(٣) سورة الرعد:١٤.
(٤) سورة النحل:١٠.
(٥) سورة البقرة:٩١.
(٦) سورة البقرة:٤.
(٧) سورة البقرة: ٢٠٤.
(٨) سورة الملك: ٣.
(٩) سورة نوح:١٥.

ما يلفت النظر أنَّ السماء والأرض قد تصاحبت مع الفعل خفى في أكثر من مورد منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾(١) ، وكذا قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾(٢).

تنوعت الألفاظ التي تبين كيفية خلق السماء من قبيل قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾(٣)، و ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ﴾(٤)، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾(٥)، ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا﴾(٦)، ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾(٧)، ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾(٨)، ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾(٩)، ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾(١٠)، ﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾(١١)، ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ﴾(١٢)، ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ﴾(١٣)، ﴿أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾(١٤)، ﴿يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ﴾. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(١٥) نجد بعض المفسرين قد ذهبوا إلى أنّ الأرض قد خلقت قبل السماء مستدلين على ذلك بورود حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ الذي يفيد الترتيب.

جعل القرآن الكريم وجود السماوات والأرض أجلاً محدداً للخلود في الجنة، وذلك

(١) سورة آل عمران:٥.
(٢) سورة إبراهيم :٣٨.
(٣) سورة البقرة:٢٢.
(٤) سورة البقرة:٢٩.
(٥) سورة الأنبياء:١٦.
(٦) سورة الأنبياء: ٣٢.
(٧) سورة لقمان:١٠.
(٨) سورة الصافات: ٦.
(٩) سورة فصلت:١٢.
(١٠) سورة ق:٦.
(١١) سورة الغاشية:١٨.
(١٢) سورة الأنعام: ١٤.
(١٣) سورة الأنعام:١٠١.
(١٤) سورة الأنبياء:٣٠.
(١٥) سورة البقرة:٢٩.

باستعمال لفظي دام وخلد في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[1] ، والمصاحبة التي بينها السياق هي الخلود بدوام السموات والأرض، واللفظ خلد بوصفه لفظا محورياً تصاحب مع جنات ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾[2]، وتصاحب مع المركب جنات الفردوس ﴿جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٠٧ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ .

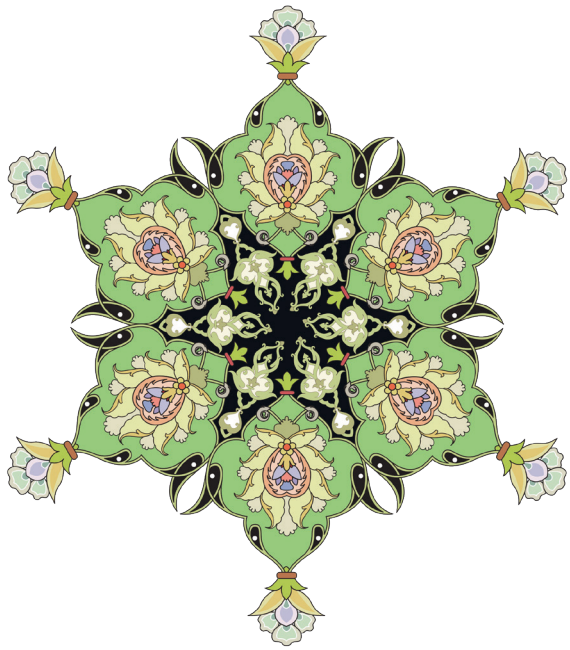

(١) سورة هود: ١٠٧.

(٢) سورة آل عمران: ١٥.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم .

٢. أساس البلاغة، أبو القاسم جار الله الزمخشري (ت٥٣٨هـ) تحقيق: محمد باسل عيون السود دار الكتب العلمية بيروت ط:١، ١٩٩٨.

٣. أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية "تأسيس نحو النص"، د. محمد الشاوش، المؤسسة العربية للتوزيع، بيروت، ط:١، ٢٠٠١ .

٤. الإنفكاك نسق فلسفي جديد، سلام عبد الهادي العبودي، دار المحجة البيضاء، ط:١/ ٢٠١٧مـ .

٥. بحار الأنوار الجامع لدرر أخبار الأئمة الأطهار، محمد باقر المجلسيّ ت١١١١ هـ، تحقيق السيد إبراهيم الميانجي ومحمد باقر البهبودي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط:٣، ١٤٠٣هـ.

٦. تاج العروس من جواهر القاموس،لأبي الفضل محمد مرتضى الزبيدي (١٢٠٥ هـ)، تحقيق: الدكتور علي مشيري، مط: دار الفكر – بيروت ، ١٩٩٤ م.

٧. التبيان في تفسير القران الشيخ محمد بن الحسن الطبرسي (ت٤٦٠هـ) المكتبة الشاملة.

٨. تفسير البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بـ"ابن حيان الأندلسي(ت٧٤٥هـ)، الموقع الالكتروني، المكتبة الشاملة.

٩. التعابير الاصطلاحية والسياقية ومعجم عربي لها، د. علي القاسمي، مجلة اللسان العربي، مكتب تنسيق التعريب، الرباط، المغرب، مج١٧، ج١، ١٩٧٩.

١٠. تعريف المتلازمات اللفظية في القاموس العربي الحديث "المعجم الوسيط" نموذجاً، د. منية لحمامي، مجلة الدراسات المعجمية، الجمعية المغربية للدراسات المعجمية، الرباط– المغرب، ع: ٢٠٠٦، ٥.

١١. تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن احمد الأزهري ت ٣٧٠هـ، تحقيق: محمد عوض مرعب و خران، مط: دار إحياء التراث العربي –بيروت، ط: ١، ١٩٩٠ م.

١٢. الدرس النحوي النصي في كتب أعجاز القرآن الكريم، د. أشرف عبد البديع عبد الكريم، مكتبة الآداب، ط:١/ ٢٠٠٨م.

١٣. جامع البيان في تفسير القرآن، أبو جعفر جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، الموقع الالكتروني، المكتبة الشاملة.

١٤. الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (ت٦٧١هـ)، الموقع الالكتروني، المكتبة الشاملة .

١٥. جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز القرآني، د. أحمد ياسوف، دار المكتبي، سوريا دمشق، ط:١ (د.ت).

١٦. جمهرة اللغة، محمد بن دريد (ت٣٢١هـ)، تحقيق: إبراهيم شمس الدين عطا ، مط: دار الكتب العلمية – بيروت، ط: ١ ،٢٠٠٥ م.

١٧. الجواهر الحسان في تفسير القرآن، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (ت٨٧٦هـ)، الموقع الالكتروني، المكتبة الشاملة.

١٨. زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت٥٩٧هـ)، المكتبة الشاملة.

١٩. الساعة في القرآن الكريم دراسة دلالية في ضوء منهج المدونة المغلقة، د.حسن عبد الغني الأسدي، مجلة كلية التربية، المجلد: الأول/ ٢٠١١م.

٢٠. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري ت ٤٠٠هـ، تحقيق: احمد عبد الغفار عطا، مط: دار العلم لملايين، ط: ١٩٥٦،١ م.

٢١. طور الاستخلاف "الطور المهدوي" دراسة قرآنية متقدمة لاستكشاف القوانين الحتمية للتطور البشري ومستقبل الأرض في مرحلة الاستخلاف على ضوء الحل القصدي للغة، عالم سبيط النيلي، إصدار مركز النيلي للدراسات القصدية، د.ط، د.ت.

٢٢. العقوبات رقم ١١١ لسنة ١٩٦٩ المعدل، أصول محاكمات جزائية، تاريخ التشريع: ١٥/ ١٢/ ١٩٦٩، المصدر: الوقائع العراقية، رقم العدد ١٧٧٨، الصفحة: ٧٦.

٢٣. علاقة المتلازمات اللفظية بالمجاز من خلال "أساس البلاغة" للزمخشري دراسة دلالية معجمية، د. زكية السائح دحماني، مجلة الدراسات المعجمية، الجمعية المغربية للدراسات المعجمية، ع ٥، ٢٠٠٦.

٢٤. علم لغة النص "المفاهيم والاتجاهات"، د. سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، القاهرة، ط:١، ٢٠٠٤ .

٢٥. علم لغة النص النظرية والتطبيق، د. عزّة شبل محمد، مكتبة الآداب، القاهرة، ط:٢، ٢٠٠٩.

٢٦. علم اللغة النصّي بين النظرية والتطبيق دراسة تطبيقية على السور المكية، د.صبحي إبراهيم الفقي، دار قباء ، القاهرة ، ٢٠٠٠م .

٢٧. علم النص، عبد المجيد جميل "مقال في مجلة عالم الفكر"، المجلد ٣٢، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،١٤٥:٢٠٠٣

٢٨. علم النص مدخل متداخل الاختصاصات، تون .أ. فان دايك، ترجمة:د. سعيد بحيري، دار القاهرة للكتاب، ط:١/ ٢٠٠١م.

٢٩. العين (معجم لغوي)، أبو عبد الرحمن الخليل بن احمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ)، تحقيق د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، مط: مؤسسة دار الهجرة ، ط: ٢،٢٠٠١ م.

٣٠. في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانيّة آفاق جديدة، د. سعيد عبد العزيز مصلوح، مجلس النشر العلمي ،الكويت،٢٠٠٣م.

٣١. القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مط: دار الفكر – بيروت.

٣٢. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الإمام جار الله محمود بن عمر الزمخشري(ت٥٣٨هـ)، الموقع الالكتروني، المكتبة الشاملة.

٣٣. لسان العرب، العلامة محمد بن مكرم بن منظورت٧١١هـ، تحقيق: عامر احمد، مط: دار الكتب العلمية – بيروت، ط: ١، ٢٠٠٥ م.

٣٤. لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، د. محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط:١، ١٩٩١، و ط: ٢ ، ٢٠٠٦م.

٣٥. لسانيات النص نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري، د. أحمد مداس، عالم الكتب، إربد الأردن، ط:٢، ١٤٣٠هـ .

٣٦. لسانيّات النّصّ، النّظريّة والتّطبيق، مقامات الهمذانيّ أنموذجاً، ليندة قيّاس، النّاشر: مكتبة الآداب القاهرة ط١، ٢٠٠٩م.

٣٧. اللباب في علوم الكتاب، الإمام محمد بن علي بن عادل الدمشقي الحنبلي (ت٨٨٠هـ)، تحقيق: علي محمد معوض وآخرون، مط: دار الكتب العلمية- بيروت، ط: ١، ١٩٩٨ م.

٣٨. المتلازمات اللفظية في المعاجم الأحادية والثنائية اللغة، أمينة أدردور، مجلة الدراسات المعجمية، الجمعية المغربية للدراسات المعجمية، الرباط- المغرب، ع ٥، ٢٠٠٦.

٣٩. مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو الفضل بن الحسين الطبرسي (ت٥٤٨هـ)، تحقيق: لجنة من العلماء والمحققين الأخصائيين، مؤسسة الأعلمي –بيروت، ط:١٩٩٥، ١ م.

٤٠. المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد (ت٣٨٥هـ)، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب، بيروت، ط:١، ١٤١٤هـ.

٤١. مدارك التنزيل وحقائق التأويل، المسمى بـ تفسير النسفي، الإمام عبد الله بن احمد بن حمود النسفي (ت٧١٠هـ)، المكتبة الشاملة.

٤٢. مدخل إلى علم لغة النص، روبرت دي بو جراند، ولفغانغ دريسلر، والهام أبو غزالة، وعلي خليل حمد، مط: دار الكتاب، ط: ١، ١٤١٣هـ.

٤٣. مدخل إلى علم اللغة النصي، فولفجانج هاينة من، وديتر فيهفيجر، ترجمة د. فالح شبيب، النشر العلمي والمطابع، جامعة الملك سعود، ١٤١٩هـ.

٤٤. مدخل إلى علم النص مشكلات بناء النص ، زتسيسلاف و اورزنياك ، ترجمة : د. سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة، ط٢٠٠٣، ١م.

٤٥. مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، محمد الأخضر الصبيحي، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط:١، ٢٠٠٨م.

٤٦. المصاحبة المعجمية المفهوم و الأنماط و الوظائف بين الموروث العربي و المنجز اللساني، د.لواء عبدالحسن عطية، ط١/ دار الكتب العلمية، بيروت / ٢٠١٨.

٤٧. معالم التنزيل، المسمى بـ (تفسير البغوي)، الحسين بن مسعود البغوي (ت٥١٦هـ) المكتبة الشاملة.

٤٨. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط:١، ١٤٣٠هـ .

٤٩. معجم مقاييس اللغة، احمد بن فارست٣٩٥هـ، تحقيق:د.عبد السلام هارون،، الدار الاسلامية، ط:١/ ١٩٩٠م.

٥٠. منزلة المتلازمات في "المعجم الوسيط"، د.علي الودرني، مجلة الدراسات المعجمية، الجمعية المغربية للدراسات المعجمية، الرباط- المغرب، ع ٥، ٢٠٠٦.

٥١. من لسانيات الجملة إلى علم النص، بشير إبرير، مجلة الموقف الأدبي ع،٤٠١/ ٩ ٢٠٠٤م.

٥٢. الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، المكتبة الشاملة .

٥٣.ـ نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، د. محمد عفيفي، مكتبة زهراء الشرق ـ القاهرة،ط:١/ ١٩٩٧م.

٥٤. نظرية علم النص: رؤية منهجية في بناء النص النثري، د. حسام أحمد فرج ، مكتبة الآداب، القاهرة، ط:١، ٢٠٠٧.

أسفل النموذج

الرسائل الجامعية

١. السبك النصي في القرآن الكريم دراسة تطبيقية في سورة الأنعام، أحمد حسين حيال، رسالة ماجستير، كلية الآداب/ الجامعة المستنصرية:٢٠١١.

٢. سورة البقرة في ضوء علم لغة النص، خالد سعد جبر، رسالة ماجستير / كلية التربية ابن رشد/ جامعة بغداد/ ٢٠١٢م.